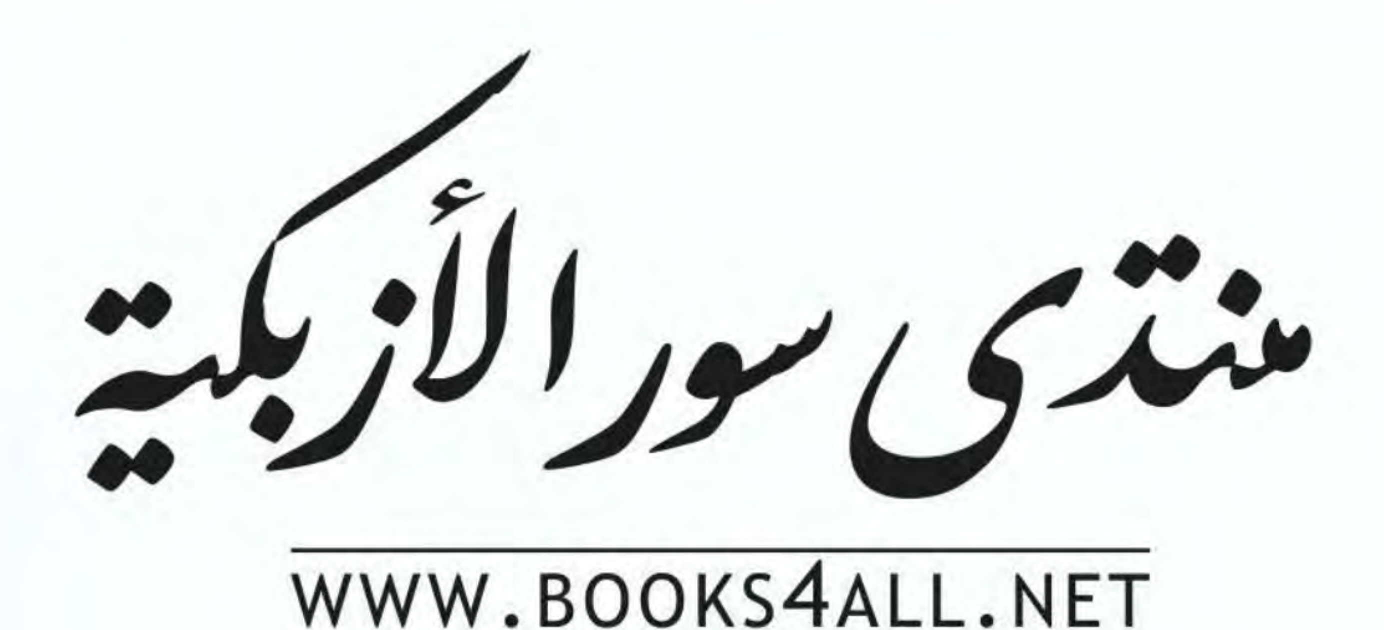
د. رمسيس عوض

جيمس جويس
أمام المحاكم الأمريكية


مكتبة الأنجلو المصرية


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

جيمس جويس

أمام المحاكم الأمريكية

جيمس جويس
أمام المحاكم الأمريكية

د. رمسيس عوض



مكتبة الانجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية.

عوض، رمسيس

جميس جويس: امام المحاكم الامريكية.

تأليف: د. رمسيس عوض. - ط١. -

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١١ .

١٦٠ ص ، ١٣ × ٢٠سم

١- الادباء الايرلندون.

٢- جويس، جميس، ١٨٨٢-١٩٤١ .

أ- العنوان

رقم الإيداع : ٢٢٢١٤

ردمك: ٤- ٢٦٩٢ - ٠٥ - ٩٧٧ تصنيف ديوى: ٩٢٨,٩١٦٢

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم الغلاف: ماستر جرافيك

الناشـر : مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

جيمس جويس (١٨٨٢-١٩٤١)

ولد جيمس جويس فى دبلن بأيرلندا وتلقى تعليمه فى مدرستين للجزويت هما كلية كلونجويس وود وكلية بلندير. ثم التحق بجامعة دبلن حيث درس اللغات الحديثة. كان جويس شديد النهم ويراسل الكاتب النرويجى الشهير هنريك إبسن. وقد تأثر بكل من دانتى وجورج مور ودابليو ب. ييتس.

نبذ جيمس جويس إيمانه بالمذهب الكاثوليكى، وعاش فى فقر مدقع يقرض الشعر فى غربته عن أيرلندا ولكنه عاد إلى أيرلندا بعد أن قضت أمه نحبها. ثم ما لبث أن غادرها برفقة رفيقة حياته نورا بارناكل. وعمل بالتدريس فى كل من تريستا وروما بإيطاليا وأنجب طفلين منها. ولكنه كابد الإملاق وشظف العيش. وتم رحيله إلى سويسرا ثم استقر به المقام مع رفيقة حياته فى باريس.

ألف جويس كتابين بعنوان موسيقى الحجرة (١٩٠٧) وأهل دبلن (١٩١٤) وهو مجموعة من القصص القصيرة. وتحمس الشاعر الكبير إزرا باوند لهذه المجموعة القصصية.

وفى عام ١٩١٥/١٩١٤ نشر جويس روايته صورة الفنان فى شبابه مسلسلة فى مجلة الايجويست (الأنانى) التى كانت هاربيت شو ويفر ترأس تحريرها. وقد ساعده أخوه ستانيسلوس ونفر من أصدقائه على التغلب على مشكلاته المالية. وفى عام ١٩١٢ توسط الشاعران إزرا باوند وييتس لدى

الصندوق الملكى للأدباء لتخصيص إعانة مالية له. ولكن صحته وبصره أخذا فى التدهور وزاد فى شقائه أن مرضا عقليا أصاب ابنته لوشيا.

وفى ٢ فبراير ١٩٢٢ أصدر أثناء إقامته فى باريس رائعته الروائية يوليسيس التى اتبع فيها التكنيك الروائى المعروف بتيار الشعور فهزت العالم الأدبى هزا عنيفا. ولم تجد هذه الرواية طريقها للنشر فى بريطانيا إلا فى عام ١٩٣٨ . وتقع أحداث هذه الرواية فى يوم واحد فى حياة بطلها ليوبولد بلوم.

وتزوج جيمس جويس من رفيقته نورا بارناكل أثناء الرحلة التى قام بها لزيارة لندن عام ١٩٣١ . وفى العالم التالى (١٩٣٢) شخص الأطباء النفسيون مرض ابنته لوشيا بأنه حالة من حالات انفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) . ورغم اشتداد وطأة المياه الزرقاء على بصر جيمس جويس فقد استطاع الإشراف على طبع روايته فينجانزويك، عام ١٩٣٩ . وعندما اندلعت ألسنة الحرب العالمية الثانية عاد إلى زيوريخ بسويسرا حيث أجريت له عملية جراحية تدهورت بعدها حالته الصحية بشكل واضح.

والجدير بالذكر أن جيمس جويس ترك أثرا واضحا فى عدد من الكتاب والكاتبات أمثال فيرجينيا وولف وصامويل بيكيت وسول بيلو وجون أبدايك.

رواية «يوليسيس» تتعرض للحظر والمحاكمة

البداية:

عندما قرأ الشاعر المعروف إزرا باوند الحكايات الثلاث الأولى فى مخطوطة جويس الشهيرة – «يوليسيس» – تنبأ لها بالحظر والمصادرة فى كل من أمريكا وأوربا. غير أن باوند رأى أن الأمر يستحق المغامرة من جانب المؤلف لنشرها نظرا لما تضمنته هذه الرواية من فن رفيع. وكتب باوند إلى مارجريت أندرسون فى نيويورك المشرفة على صفحات مجلة الريفيو الصغيرة يحذرها من مغبة نشر هذه الرواية. وفى نفس الوقت أثنى باوند ثناء عاطرا على الرواية التى خطها يراع «يوليسيس». ولكن مارجريت أندرسون لم تلق بالا لتحذيرات باوند فأقدمت على نشر الرواية فى مجلتها.

لم تكن مارجريت أندرسون بمنأى عن الصراعات المحتدمة ضد الرقابة. ففى عام ١٩١٢ اصطدمت بهذه الرقابة عندما كانت تعمل محررة أدبية لمجلة تصدرها الطائفة البرسبيتيرية فى شيكاغو باسم القارة وهى مجلة تعنى فى الأساس بنشر المقالات التى تتناول الأخلاق ولا تهتم بالأدب إلا فى أضيق الحدود. وحدث احتكاكها بالرقابة عندما نشرت مقالا فى مجلة القارة امتدحت فيه رواية الأخت كارى التى ألفها درايزر واصفة إياها بأنها بديعة. الأمر الذى أثار استياء القراء وحنقهم عليها لامتداحها رواية فاضحة ومبتذلة. واقتنع رئيس تحرير المجلة بسلامة وجهة نظر القراء فأنحى بالملامة على مارجريت أندرسون لافتا نظرها إلى ضرورة

تحاشى إثارة مثل هذه المشاكل فى المستقبل. فثارت السيدة أندرسون لكرامتها واستقالت من العمل فى مجلة القارة، وأنشأت مجلة بعنوان الريفيو الصغيرة. واشتمل العدد الأول الصادر منها على دفاع عن الحرية التى تموت الفنون بانعدامها. ولكن مارجريت أندرسون لم تنعم بالحرية التى تشتهيها فقد تعرضت مجلتها للحظر خمس مرات لأسباب تتعلق بالسياسة ولأنها هاجمت القوانين التى فرضت قيودا على حرية الفن، وأخضعته للقيم والاعتبارات الأخلاقية والسياسية والدينية.

بلغ صراع مارجريت أندرسون مع الرقابة الأمريكية ذروته حين أصدرت عدد ديسمبر ١٩١٥ من مجلة الريفيو الصغيرة أيدت فيه دعوة جولدمان إلى الثورة والإطاحة بالدولة والنظام الرأسمالى. وسطرت مارجريت أندرسون مقالا بعنوان نحو الثورة هاجمت فيه السلطات الأمريكية لقيامها بإعدام جو هيل أحد النشطاء فى مجال العمل السياسى، فلا غرابة إذا رأينا هذه المجلة تتعرض للمصادرة فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ . ويبدو أن المبرر القانونى الذى استخدمته السلطات الأمريكية فى مصادرة الريفيو الصغيرة لأول مرة استند إلى حكم محكمة الاستئناف الذى ينص على أنه يمكن لمصلحة البريد أن تصادر أية مادة منشورة تتضمن دعوة صريحة إلى ارتكاب أفعال تنتهك القانون.. بل يمكن مصادرتها لمجرد أنها تتعمد الدعوة إلى الامتناع عن الالتحاق بصفوف الجيش. وقد رأى دابليو هـ. لامار محامى مصلحة البريد أنه يجب مصادرة عدد أكتوبر ١٩١٧ من الريفيو الصغيرة لاحتوائه على مادة شهوانية فاضحة استنادا إلى البند ٢١١ من قانون الولايات المتحدة الجنائى (القسم ٤٨٠ من قوانين

مصلحة البريد وتنظيماتها لسنة ١٩١٣) . وذهب جون كوين فى دفاعه عن المجلة إلى أنه يشتم دوافع سياسية وراء إدانة مصلحة البريد بتهمة الشهوانية للقصة التى نشرها ويندهام لويس فيها بعنوان وليفة كانتلمان فى الربيع لأن هذه القصة تعارض الحرب العالمية الأولى. وهناك فى سجلات وملفات مصلحة البريد الأمريكية ما يشير إلى هذا فقد أدرجت هذه القصة الغرامية على قوائم الأدب الهدام وليس الأدب البذئ.

هذه هى السابقة الرقابية التى مهدت الطريق إلى قيام مصلحة البريد الأمريكية بحظر رواية «يوليسيس» فيما بعد. وعلى أية حال لم تكن هذه المصلحة أول من فرض الحظر عليها. فقد طالب الشاعر الكبير إزرا باوند بوصفه المحرر الأجنبى للريفيو الصغيرة بضرورة حذف فقرات من قصة كاليبسو الواردة فى رواية «يوليسيس» قبل إرسالها إلى مارجريت أندرسون لنشرها فى أمريكا، وتحاشيا لإثارة غضب جون كوين حتى لا يسحب دعمه المالى لمجلة الريفيو الصغيرة حيث إن هذه المجلة فى مسيس الحاجة إلى هذا الدعم.

ويبدو أن إزرا باوند حركته دوافع شخصية دفعته إلى حظر بعض فقرات فى «يوليسيس» . فقد كتب إلى مؤلفها جيمْس جويس يقول إن دوافعه إلى استبعاد هذه الفقرات كانت أدبية فى جوهرها حيث إن باوند يؤمن بالواقعية وفقا للتقاليد الأدبية التى أرسى فلوبيرت قواعدها ويشيح بوجهه عن شكل العمل الفنى الجمالى.

ويبدو كذلك أن استبعاد إزرا باوند لبعض أجزاء من «يوليسيس» يرجع إلى أسباب دينية خافية حيث إن فكر جويس يتعارض مع معتقدات

باوند الدينية. وعندما أبلغ إزرا باوند جون كوين بقيامه بحذف عشرين سطرا من قصته كاليبسو المنسوخة بالآلة الكاتبة كتب إلى جويس شارحا أنه أراد بهذا الحذف أن يبطل حجة الرقيب فى فرض الحظر عليها. فضلا عن أنه أراد أن يتحاشى إغضاب ممول المجلة كوين. ومعنى هذه الأعذار أن اهتمام إزرا باوند بالجوانب العملية فاق أية اعتبارات فنية أو جمالية. ونحن نرى إزرا باوند يعترض على ما فى قصة كاليبسو من مبالغة فيما يتعلق بالإشارة إلى الوصف المفصل والدقيق لعملية التبرز والتبول.

والجدير بالذكر أن جويس لا يستفيض فى وصف تفاصيل عملية التبرز والتبول فحسب بل يستخدم لغة بذيئة فى تسمية البحر الميت بأنه فرج العالم الغائر العميق. بل إنه لا يستخدم كلمة فرج اللائقة والمحترمة وإنما يستخدم الكلمة السوقية البذيئة المقابلة لها. ويذكرنا الحذف الذى أجراه الشاعر إزرا باوند على رواية «يوليسيس» بحقيقة تاريخية مهمة، مفادها أن الموظفين بمصلحة البريد فى الولايات المتحدة والعاملين فى جمعية نيويورك لمحاربة الأنشطة المنافية للآداب لم يكونوا الوحيدين الذين أثارت ألفاظ جويس البذيئة استياءهم. فضلا عن أن باوند لم يكن الوحيد بين الأدباء المحدثين الذين صدمهم الفحش فى لغة رواية «يوليسيس» حتى د.هـ. لورانس _ المتهم بالبذاءة – أدان حكاية بنيلوبى واصفا إياها بأنها أقذر وأفحش رواية يمكن لأديب أن يكتبها. حتى الروائية الكبيرة فيرجينيا وولف التى استخدمت نفس التكنيك الروائى المعروف بتيار الشعور أشاحت بوجهها عن رواية «يوليسيس» واصفة إياها بأنها مجرد بقع الدمامل كتلك المنتشرة فى جسد ماسح أحذية، ووصفت جويس

نفسه بأنه يمتلك فحولة ذكر الماعز. فضلا عن أن السيدة الأمريكية آمى لويل شكت إلى د.هـ.لورانس أن بنى جلدتها لا يستطيعون تمييز رؤية الحياة ككل مكتمل من الناحيتين الجسدية والروحية عن البذاءات الفاضحة التى أوردها جويس فى روايته.

وإنها لمفارقة أن نجد أن باوند ـ وهو أول أديب كبير يتحمس لرواية «يوليسيس» هو فى الوقت نفسه أول من يفرض الحظر على بعض أجزائها. ومعنى ذلك أن أول مدافع عن هذه الرواية هو فى الوقت ذاته واحد من أبرز المعارضين لها. وإنها لمفارقة أيضا أن نجد أن باوند الشديد التحمس لنشر رواية «يوليسيس» يعارض أحد القراء المنتقدين لها، متجاهلا أن هذا القارئ يحذو حذوه ويردد نفس انتقاداته، فهو يعارض وجهة نظر هذا القارئ بقوله: حيثما يشير جويس إلى القمل أو الروث أو أى شىء من هذا القبيل يدعو إلى الاشمئزاز فإنه يفعل هذا عن قصد، حيث إنه كفنان كبير يرمى إلى الإعلاء من شأن الأثر الجمالى لهذه الرواية أو التشديد على وإبراز بعض المشاعر المكثفة الأخرى...

على أية حال لم يخطئ باوند عندما حذر من أن «يوليسيس» سوف تتعرض للقمع والمصادرة بسبب بذاءتها. فقد امتنعت مصلحة البريد الأمريكية عن إرسال أول جزء من الرواية نشرته مجلة الريفيو الصغيرة على صفحاتها فى يناير ١٩١٩ . ويتضمن ملف مكتب البريد رأى أحد العاملين فى مكتب الترجمة التابع له إشارة إلى الصفحات البذيئة من رواية «يوليسيس». ولكن مجرد إدراج هذا الرأى فى قائمة الأدب المخرب أو الهدام يدل على أن أحد دوافع حظر الرواية كان سياسيا وخاصة لأن

مهمة مكتب الترجمة الأساسية هو حظر المراسلات التى تتضمن الخيانة والقذف والتشهير التى يتبادلها الأمريكان والأجانب بمقتضى قانون التجارة مع العدو الصادر فى اكتوبر ,١٩١٧ غير أنه يحق لبعض الناس أن يطرحوا هذا السؤال: ماذا يخيف أمريكا العملاقة من نشر رواية «يوليسيس» فى مجلة لا تضر ولا تؤذى على الإطلاق، هى مجلة الريفيو الصغيرة؟!

ولكن يبدو أن الذعر انتاب أمريكا من الثورة البلشفية التى اندلعت عام ١٩١٧، وخاصة بسبب ما تضمنته رواية جيمس جويس من طبيعة راديكالية ثورية.

لقد كان فريتز سين محقا فى قوله: ليست هناك – إلا فيما ندر – أية أعمال أدبية تبدو فى نظر قرائها من أصحاب الخبرة المحدودة أنها تفوق رواية «يوليسيس» فى فوضاها وانعدام نظامها، الأمر الذى جعل نقادها ينفرون من فوضاها وجعل السلطات المسئولة فى الحكومة الأمريكية يناصبونها العداء. على سبيل المثال استقبل الناقد جون ميدلتون مرى الرواية بقوله إن جويس لا يعترف بوجود أية قيم أخلاقية اجتماعية. فهو يرفض رفضا باتا وجهة النظر القائلة بأنه ينبغى للأخلاق الاجتماعية تحديد ما يكتب وما لا يكتب. إنه نموذج للمتمرد المتمحور حول ذاته والذى لا يفكر فى أى شىء آخر غير نفسه. إن (جويس) لا ينتمى إلى أوربا بل هو شخص يحمل قنبلة لنسف ما تبقى من أوربا نسفا كاملا... ومقصده هذا – إذا كان له أى مقصد اجتماعى _ نشر الفوضى الشاملة.

وقد وجد الناقد س.ب.س.ميس أوجه شبه بين رواية «يوليسيس» والثورة البلشفية فهو يقول فى هذا الشأن: إن قراءة رواية المستر جويس

أشبه ما تكون بالقيام برحلة داخل روسيا البلشفية التى تحطم كل المعايير.

ويقول الناقد المحافظ شين ليسلى إن رواية «يوليسيس» تشبه أوديسا الصرف الصحى، وعبر هذا الناقد عن خشيته من أنها سوف تترك شيئا شبيها بالبلشفية الأدبية.

وإذا كان نقاد الأدب شبهوا فى عام ١٩٢٢ جيمس جويس وروايته «يوليسيس» بالثوار البلاشفة ودعاة المذهب الفوضوى، فإن موظفى مصلحة البريد الأمريكية بقيادة رئيسها بيرلسون معذورون فى الذهاب إلى هذا الرأى عام ١٩١٩ . يقول جون سمنر رئيس جمعية محاربة الرذيلة – الذى تعاون تعاونا وثيقا مع مصلحة البريد الأمريكية: إذا كان لدينا فى الحياة السياسية فوضويون وبلاشفة يبشرون بمذاهبهم فى الصالونات، فلدينا أمثالهم فى الحياة الأدبية والفنية. وهم يمثلون خطرا داهما.

حتى إزرا باوند نفسه ذهب منذ البداية إلى أن السلطات الرسمية سوف تربط بين الثورة فى مجال الأدب والثورة فى مجال السياسة. وسعى باوند إلى مساعدة جويس فى القضية التى رفعها عليه اثنان من موظفى السفارة البريطانية فى زيوريخ بسويسرا هما هنرى كار وبينيت كنوى للضغط عليه حتى يرضخ لرغبتهما فى مؤازرة بريطانيا ضد أعدائها إبان الحرب العالمية الأولى. فقد كتب باوند إلى السير هوراس رامبولد _ الوزير المفوض فى مدينة بيرن _ يحذره من استمرار اضطهاد موظفى السفارة البريطانية فى زيوريخ لرعايا بريطانيا لأن هذا الاضطهاد من شأنه أن يقودهم إلى اعتناق البلشفية أو الانضمام إلى الأحزاب الثورية الأكثر عنفا.

وهناك ما يشير إلى أن مصلحة البريد الأمريكية كانت تضع

الاعتبارات السياسية نصب عينيها عندما قامت بحظر نشر أجزاء من «يوليسيس» فى مجلة الريفيو الصغيرة بسبب ما جاء فيها من نسف للقواعد الأدبية التقليدية، وخلوها الكامل من الشكل الجمالى، وتدميرها للمواضعات الأخلاقية، وهجومها الصريح على سلطة الدولة والإمبريالية والنظم العسكرية إلخ... وأغلب الظن أن جويس كان يفكر فى كل هذا عندما قال لجورج بوراخ: إنى كفنان أعارض الدولة... فالدولة دوائر أحادية المركز، فى حين أن الإنسان غير أحادى المركز، الأمر الذى يؤدى إلى نشأة صراع أبدى. وحظر نشر بعض أجزاء الرواية فى مجلة الريفيو الصغيرة جزء من ذلك الصراع الأبدى.

وتتضمن حكاية الليسترجونيون فى رواية «يوليسيس» هجوما على النظام الملكى فى بريطانيا. صحيح أن هذا الهجوم لطيف للغاية ولكنه جعل الرقباء العاملين فى مصلحة البريد يعتقدون فى يناير ١٩١٩ أن الرواية تبشر بالشيوعية. وقد استند تصميم الرقيبين بيرلسون ولامار على قمع أفكار الثوار إلى الاعتقاد بأن المعارضين للحرب يرون أنها تصب فى مصلحة الاستعمار البريطانى. وتصادف أن حظر «يوليسيس» فى مجلة الريفيو الصغيرة تزامن مع حدوث إضراب محدود فى مدينة سياتل ما لبث أن اتسعت دائرته فى ٢١ يناير ١٩١٩ حتى انتهى فى ٣ فبراير من نفس العام بالقيام بإضراب عام هز الولايات المتحدة هزا عنيفا. ولكن يتعين علينا أن نتذكر أن الهجاء السياسى الذى تتضمنه رواية «يوليسيس» ليس وحده السبب فى مصادرتها، فهناك عبارات العشق والغرام البذيئة التى تمتلئ بها الرواية مثل تشبيه غراميات بلوم مع مولى بذبابتين فى

حالة مضاجعة جنسية. وهو المنظر الذى انتقده سام كولمان بعد انقضاء أربعة عشر عاما من نشره. هذا المنظر الروائى الذى يتكرر فى «يوليسيس» يحتوى على عناصر اعتاد جويس على خلطها أو مزجها، وهى عمليات الطهى وشهوانية المضاجعة والتبرز ومثل تحسس بلوم لجسمه وأعضائه التناسلية. ولا شك أنه من حسن حظ مارجريت أندرسون أن الرقابة فى مصلحة البريد لم تتنبه للبذاءة الموجودة فى الجزء الثانى من حكاية الليسترجونيون فسمحت بتداولها ونشرها دون أدنى اعتراض عليها.

وفى عدد مايو ١٩١٩ من مجلة الريفيو الصغيرة الذى يحتوى على حكاية سكيلا وكاربيدس اشتكت مارجريت آندرسون من حظر مصلحة البريد للجزء من الرواية المنشور فى يناير من ذلك العام، وقالت إنها خشيت على الرواية من المزيد من الحظر فقامت بنفسها باستبعاد بعض فقراتها التى تتحدث عن الممارسات الجنسية المحرمة التى يعرفها الجميع مثل معاشرة الأبناء للأمهات ومعاشرة النساء للثيران، فضلا عن ممارسة العادة السرية فى ذلك الجزء من الرواية الذى يحمل عنوان شعر عسل فى اليد. ويؤكد لنا جاكسون براير أن خوف مارجريت أندرسون من الرقيب الأمريكى جعلها تبالغ فى حذف بعض أجزاء الرواية التى كان يمكن للرقيب عام ١٩١٩ أن يجيزها. ولكن الناقد سام كولمان اعتبرها بذيئة فى عام ١٩٣٢/١٩٣٣ . فلاغرو إذا ما شاهدنا اعتراضات باكرة فى عام ١٩١٩ على ما تحتويه الرواية من علاقات محرمة بين ذوى القربى وشذوذ جنسى ومضاجعة الإنسان للحيوانات وممارسة العادة السرية. ورغم الحذف الاحترازى من جانب المحررة الأدبية مارجريت أندرسون لبعض

أجزاء الرواية فقد استمر الرقيب الأمريكى فى حظر أجزاء أخرى منها. فلجأت إلى كوين حتى يتدخل لدى مصلحة البريد. واعتقد كوين أنه ليس من المجدى اللجوء إلى القضاء لرفع الحظر على الرواية. ولكنه رأى فى الوقت نفسه أنه من المفيد أن يقوم بإعداد مذكرة تدافع عن رواية جويس وقيام مجلة الريفيو الصغيرة بنشرها. وقدم كوين هذه المذكرة إلى مكتب محامى مصلحة البريد دابليو هـ. لامار وأرسل نسخة منها إلى الشاعر إزرا باوند الذى تحمس لها ووصفها بأنها أعظم دفاع ليس عن جيمس جويس وحده بل عن الأدب الواقعى برمته. وقد شاركه فى هذا الرأى الشاعر الكبير ت.س.إليوت الذى سعى إلى الحصول على موافقة كوين لنشر هذا الدفاع المجيد فى مجلة الايجويست. ولكن كوين رفض لأنه لم يرغب فى الظهور علنا كمدافع عن الأدب البذئ.

غير أن لامار محامى مصلحة البريد ظل مصرا على موقفه الحاظر للمجلة ليس بسبب بذاءة رواية جيمس جويس فقط ولكن بسبب اعتراضه على كل محتويات العدد، وعلى الرسوم الفاضحة العارية التى رسمها جيمس لايت وكذلك بسبب زراية جيمس جويس بالملكة فكتوريا والملك إدوارد إلى جانب زرايته بالاستعمار البريطانى. ونحن نشاهد حديثا يدور بين مجموعة أيرلنديين من مرتادى الحانة ينددون بالاستعمار البريطانى وقسوة الأسطول البريطانى.

والجدير بالذكر أن الأمريكان أصابهم الفزع العظيم من بعبع الشيوعية فى شهر يناير على وجه التحديد فى عام ١٩٢٠، الأمر الذى جعل النائب العام الجنرال بالمر يشن حربا شعواء على أتباع الأفكار

الثورية. وبطبيعة الحال لم ترق له الدعوة إلى السلام التى دعت إليها رواية «يوليسيس» على لسان شخصية بلوم. فضلا عن تعريض الرواية باستغلال التبشير بالكتاب المقدس لأغراض استعمارية. وباختصار كانت السياسة أحد الأسباب الرئيسة التى دفعت الرقابة إلى حظر رواية «يوليسيس».

ويخلق بنا فى هذا الصدد أن نذكر أن جيمس جويس بعث خطابا إلى الآنسة ويفر قال فيه:

أرسل شخص اسمه المستر هيف - أو هيب - خطابا وديا يتضمن أطيب التحيات ذاكرا فيه أن الرقيب الأمريكى حرق عدد مايو من المجلة بأكمله وهدد بإغلاقها وبسحب رخصتها إذا استمرت فى نشر («يوليسيس»). وهذه ثانى مرة أسعد فيها بحرقى فى هذه الدنيا. آملا أن يكون هذا توطئة لحرقى فى الآخرة بنيران المطهر على وجه السرعة برفقة القديس ألوسيوس الذى يحتضنى ويرعانى.

ويدل هذا الخطاب على أن جيمس جويس يستعذب الشهادة ويجد متعته فى قلم الرقيب الأزرق.

وأدى الحظر المتكرر الذى فرضته مصلحة البريد الأمريكية على مجلة الريفيو الصغيرة إلى تعطلها عن الصدور فى شهر فبراير لتعود إلى الصدور فى شهر مارس - أى فى الشهر التالى - متضمنة الجزء الأخير من حكاية سايكلوبس واستمرت المجلة فى الصدور دون حظر أو تدخل من جانب مصلحة البريد الأمريكية حتى شهر يونية. ولكن الرقابة عادت إلى

فـرض الحظر على الرواية فى أغـسطس ١٩٢٠ . وأقـسم جـون سـمنر - سكرتيـر جمعية محاربـة الرذيلة _ على إصـدار أمر بفرض الحظر على مكتبة ميدان واشنطن لأنها باعت نسخا من أعداد المجلة البذيئة. واستنادا إلى هذا الأمـر انتقلت القضية إلى ساحات القضاء حين قامت مصلحة البريد بتوزيع عدد يوليو/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة.

كان ظهور رواية «يوليسيس» مسلسلة فى مجلة الريفيو الصغيرة سببا فى وصول سيل لا ينتهى من الخطابات الغاضبة إلى هذه المجلة يحتج فيها أصحابها على نشر بذاءات جيمس جويس. وقد أصبح سيل الخطابات المحتجة عارما عند نشر الجزء الثالث والأخير من الرواية الذى يحمل عنوان نوسيكا، وفيه نرى ليوبولد بلوم يستثيره جنسيا منظر جرتى ماكدويل وهى تعرض بطريقة شهوانية كلسونها فيلجأ بلوم إلى ممارسة العادة السرية فى سرواله. وكان الدافع وراء هذه الخطابات الغاضبة هو خشية أصحابها من وقوع الرواية فى أيدى الشباب. وهو ما دعا جمعية محاربة الرذيلة فى نيويورك إلى المطالبة بحظر نشر مجلة الريفيو الصغيرة لحماية الصغار من الفساد.

كانت مجلة الريفيو الصغيرة تعانى نقصا فى الموارد المالية. الأمر الذى جعلها ترسل عدد المجلة الصادر فى يولية / أغسطس إلى عدد من الأشخاص بالمجان على سبيل الدعاية من بينهم ابنة محام مرموق فى نيويورك. فأبدت الفتاة اشمئزازا منها وأعطت المجلة إلى والدها المحامى وطلبت منه أن يرفع قضية ضدها، واستجاب الأب إلى طلب ابنته على الفور وأرسل الخطاب التالى إلى إدوارد سوان رئيس نيابة منطقة نيويورك.

وفيما يلى نص هذا الخطاب:

سيدى العزيز

مرفق لسيادتكم نسخة من مجلة الريفيو الصغيرة المرسلة إلى ابنتى دون أن تطلبها. من فضلك اقرأ الفقرات التى عليها علامات ص٤٣، ٤٥، ٥٠، ,٥١ وإذا كانت هذه البذاءات لا تخضع لنصوص قوانين البريد، فهل لا توجد طريقة يمكن بها الحد من تداول مثل هذه المجلات وقصر توزيعها على المشتركين فى هذا النوع من المجلات أو من يقومون بشرائها؟ بالتأكيد لابد وأن هناك طريقة لاستبعاد مثل هذه الكتابات من بيوت الناس الذين لا يريدون الاطلاع عليها حتى إذا لم يكن هناك سبيل إلى حظرها لصيانة الأخلاق.

وأسند سوان فحص الشكوى إلى وكيل نيابة منطقة نيويورك جوزيف فورستر الذى بادر فورا باستشارة جون سمنر الذى حل محل أنتونى كومستوك كأمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة. وانتهى رأيهما إلى قرار بمقاضاة المسئولين عن نشر المجلة وعن بيع عدد يولية / أغسطس منها أمام المحاكم. ومن المؤكد أن رئيس نيابة منطقة نيويورك استجاب لنصح سمنر ومشورته. والجدير بالذكر أن أنتونى كومستوك مؤسس جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة هو المسئول عن إصدار التشريعات المناهضة للرذيلة. فلاغرو إذا رأينا هذه الجمعية تلعب دورا نشيطا فى التصدى لمجلة الريفيو الصغيرة لأنها قمينة بإفساد أخلاق الشباب.

وواقع الأمر أن الصراع المحتدم بين جمعية نيويورك لمحاربة

الرذيلة والفتاة التى تضررت من بذاءة «يوليسيس» من جانب وبين محررة المجلة مارجريت أندرسون من جانب آخر ليس سوى صراع بين الفكر الفكتورى المنادى بالحشمة وبين حداثة جويس التى تنادى بالصراحة والصدق.

ويقول الدارسون لحياة جيمس جويس وأدبه إن هذا الأديب شارك شخصيته الروائية ليوبولد بلوم اهتمامه بكلسونات النساء التى يثير منظرها الشهوة فيه. وهناك فى حياة المؤلف ما يدل على أن كلسونات النساء أثارت فيه رغبات الجسد. فعندما كان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره اصطحبته مربيته إلى الريف. وبينما هما سائران أرادت مربيته أن تتبول فطلبت منه أن يدير رأسه وهى تبول. ولكن صوت طرطشة بول المرأة على الأرض كان كافيا لإثارة الرغبة الجنسية فيه. ويجدر بالذكر أن جيمس جويس قابل امرأة تدعى مارثا فليشمان فى زيوريخ عام ١٩١٨ . وكان جويس ينظر من شباك شقته عندما رآها تشد سيفون التواليت فى شقة مواجهة، الأمر الذى أثار فى مؤلفنا الرغبة الجنسية. وكثيرا ما تحدث جويس مع هذه المرأة فى موضوع أثير إلى قلبه هو كلسونات النساء.. أى أن كلا من المؤلف جويس وشخصيته الروائية ليوبولد بلوم يظهر اهتماما شديدا بكلسونات النساء. فمنظر كلسون الفتاة جيرتى يثير فى بلوم الرغبة الجنسية تماما مثلما يثير منظر كلسون مارثا فى جويس رغبات الجسد.

وهكذا احتدم الصراع بين القوى المحافظة الحريصة على الفضيلة ومكارم الأخلاق وقوى الحداثة الحريصة على التعبير الصادق عن الواقع. وقد ظلت القوى المحافظة حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤

تطرح بقوة هذا السؤال: هل قراءة هذا الكتاب أو ذاك كفيلة بخدش حياء عذراء فى الثامنة عشرة من عمرها. وهكذا أصبحت حمرة خجل العذارى المعيار الذى تقاس به بذاءة الكتب، الأمر الذى وصفه الكاتب البريطانى جورج مور بأنه غاية فى السخف.

ويذهب النقاد إلى أن جيمس جويس تعمد محاكاة أسلوب الروائية ماريا كمنز بقصد الزراية به.. وهو أسلوب يراعى مقتضيات الحشمة والعفاف على الطريقة الفيكتورية التى تتعارض مع ما يحدث فى الواقع. وقد سبق لجويس فى روايته أن حول القصة التى رواها هوميروس عن لقاء نوسيكا الطاهرة و«يوليسيس» الطاهر إلى لقاء لممارسة العادة السرية بين شابة مفسودة ورجل مجرب معدوم الضمير. والذى لا شك فيه أن سمنر أمين جمعية محاربة الرذيلة ناصب هذا المشهد الذى صوره جويس ألد العداء. واعترض سمنر بوضوح على فقرة الرواية التى تبين أن جيرتى كانت على علم بشهوات الرجال أمثال بلوم لأن صديقتها بيرثا أخبرتها أنه يحتفظ بصور الراقصات العاريات وأنه اعتاد الآتيان بأفعال غير لائقة كتلك التى يتخيلها أحيانا أثناء المضاجعة، وعبر سمنر عن استيائه من قول بلوم إن جيرتى كانت تعلم أنه كان يمارس العادة السرية وهو يراها تحرك فخذيها وتهز رجليها إلى الأمام والخلف. أى أن الرجل والمرأة كانا يتناظران فى ممارسة العادة السرية.

قرر جون سمنر ضرورة منع محررى مجلة الريفيو الصغيرة من توزيع عددها الصادر فى يولية/ أغسطس ١٩٢٠ وتقديمهم إلى المحاكمة. وفى ٢٩ سبتمبر ١٩٢٠ تمكن سمنر من الحصول على نسخ من هذا العدد

من جوزفين بيل آرنيز الشريكة فى ملكية مكتبة مينان واشنطن. وقام بتسليم هذه النسخ برفقة شكوى كتابية إلى محكمة شرطة منطقة جفرسون ماركت. واقتنع قاضى هذه المحكمة بأن شكوى سمنر لها ما يبررها فأمر باستدعاء السيدة آرنيز الشريكة فى ملكية المكتبة المشار إليها للمثول أمامه.

وبعد مضى ثلاثة أيام قامت محررة المجلة السيدة أندرسون وزميلتها جين هيب بإبلاغ ممولها جون كوين بنبأ توقيفها فقال لهما كوين معبرا عن ضيقه: إنه لم يعبأ مطلقا بما حدث للمجلة، وتمنى لو أن مصلحة البريد الأمريكية حظرت تداولها حظرا دائما. كما أنه عبر عن احتقاره للهدف الذى تسعى هاتان المحررتان إلى تحقيقه، وهو توسيع أفق جمهور القراء. فضلا عن أنه عبر عن احتقاره لاقتناعهما بأنهما تفعلان شيئا طيبا بنشر رواية جويس دون حذف أى جزء منها. وعندما جادلتا بأن الأديبين باوند وجويس يحبذان نشرها دون حذف رد عليهما كوين قائلا: فليذهب باوند وجويس إلى الجحيم. إن جويس يعيش فى زيوريخ كما أن باوند يعيش فى لندن.. وهما لا يدركان الأثر العام الذى تتركه الرواية هنا (أى فى أمريكا) ولا يضيرهما معرفة هذا الأثر لأنهما فنانان.

ورغم عدم اهتمام كوين بالمستقبل المظلم الذى ينتظر مجلة الريفيو الصغيرة فإنه أدرك أن مصادرة عدد هذه المجلة الصادر فى يوليو/ أغسطس معناه الحكم بمصادرة «يوليسيس» بأكملها، وهو ما لم يكن يرضاه. ورغبة منه فى إنقاذ رواية جويس من الحظر الشامل والنهائى اتصل كوين تليفونيا بسمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة بغية مهادنته. واقترح عليه مقاضاة محررة المجلة أندرسون وزميلتها جين هيب بغية تهدئته ومهادنته

بدلا من مقاضاة صاحبة المكتبة جوزفين أرنيز. وتم بالفعل استبدال الأسماء فى محكمة شرطة جيفرسون ماركت يوم ٤ أكتوبر ١٩٢٠ . واغتنمت المحررتان أندرسون وهيب هذه الفرصة للعراك مع سمنر، وتجاهلتا نصيحة كوين بتجنب الاشتباك معه وتحدياه بالتعبير عن فخرهما واعتزازهما بنشر عدد يولية/ أغسطس من المجلة، وأكدتا استعدادهما لأن تفعلا نفس الشىء مرة أخرى. وتصادف أن التقت السيدة أندرسون سمنر أمام مكتبة ميدان واشنطن فدافعت عما فعلته بشدة. وأبدت أندرسون إفراطا فى التفاؤل عندما ظنت أنه بمقدورها إقناعه بوجهة نظرها.

وأيضا حاول كوين من جانبه إقناع سمنر بتغيير موقفه المناهض للرواية فقابله ليتناول الغداء معه يوم ١٥ أكتوبر ١٩٢٠ . وفى أثناء هذه المقابلة لفت سمنر نظر كوين إلى الفقرات التى يعتبرها بذيئة بوجه خاص فى حكاية نوسيكا. واعترف كوين بكل صراحة بأنه كان يجدر بالمجلة أن تمتنع عن نشر بعض أجزاء حكاية «نوسيكا». ولكن جادل بأنه من الإجحاف مصادرة مجلة «الريفيو الصغيرة» بسبب بعض أجزاء الرواية المنشورة. وجادل بأن حظر المجلة التى تنشر رواية «يوليسيس» فى حلقات من شأنه أن يؤدى إلى حظر نشر هذا العمل الأدبى المهم بين دفتى كتاب. وحتى يقنع كوين أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة بصرف النظر عن مقاضاة المجلة لجأ إلى رأى الخبراء والمتخصصين وقدم إليه نسخة من عدد أكتوبر من مجلة «ديال» التى تحتوى على مقال كتبه الناقد إيفيلين سكوت عن جيمس جويس بعنوان «معاصر يصلح للمستقبل». ولتهدئة خواطر المعترضين على رواية ««يوليسيس»» طلب من مجلة

الريفيو الصغيرة التوقف عن نشر مسلسل هذه الرواية. ولكن سمنر قال إنه لا يمكنه الموافقة على هذا الاقتراح بدون الحصول على موافقة سوان وكيل نيابة المقاطعة. غير أن الجهات الرسمية الأمريكية ظلت ماضية فى مقاضاة محررى مجلة «الريفيو الصغيرة»، الأمر الذى أدى إلى استدعاء كوين وكلتا المحررتين أندرسون وهيب للإدلاء بأقوالهما المبدئية أمام محكمة شرطة جيفرسون ماركت. وفى أول الأمر لم يكن كوين ينوى حضور جلسة الاستماع المشار إليها برئاسة القاضى جوزيف إ.كوريجان ظنا منه أن هذا القاضى يعتزم تقديم المحررتين آندرسون وهيب إلى المحاكمة فى جلسات خاصة. ولكنه لم يلبث أن غير موقفه ووافق على حضور الجلسة عندما أبلغه مساعده أن القاضى كوريجان أبدى إحجامه عن السير قدما فى إجراءات المحاكمة على أساس مذكرة سمنر الكتابية وأنه ينوى قراءة عدد المجلة الصادر فى يولية/ أغسطس بنفسه. ولهذا توجه كوين على وجه السرعة إلى المحكمة. وعند وصوله إلى قاعة المحكمة فوجئ برؤية جمهور كبير من الحاضرين وكأنهم ينتظرون محاكمة عدد من المقبوض عليهم فى أحد بيوت الدعارة الراقية. وامتلأت أروقة المحكمة بضباط شرطة فى ملابسهم الرسمية على أكتافهم النياشين اللامعة. وكذلك حضر للفرجة قوادون وعاهرات ومحررو صحف. واستاء كوين من هذا المنظر المقزز لأنه لم يكن يريد أن ترتبط رواية «يوليسيس» بهذه الحثالة السافلة من الحضور.

وعندما وصل كوين إلى قاعة المحكمة كان سمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة قد انتهى من تلاوة شكواه ضد كل من

المحررتين أندرسون وهيب وتلاوة ادعائه ببذاءة مجلة «الريفيو الصغيرة» وخاصة فى ص٤٢ حتى ص٤٨ وصفحات ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠ واصفا إياها بأنها صفحات بذيئة وشهوانية وقذرة ومقززة. وأضاف سمنر أن المحررتين أندرسون وهيب لم تعترفا بنشر هذه المجلة فحسب بل إنهما تفخران بهذا. وبعد انتهاء القاضى كوريجان من الاستماع إلى شكوى سمنر توجه إلى إحدى غرف القضاة، وكان لا يزال مشغولا بمطالعة شكوى سمنر عندما وصل كوين إلى قاعة المحكمة. وهمس كوين مستخدما نفس توريات جويس البرازية المنتشرة فى كتاباته قائلا: «لا أدرى إذا كانت مبولة المحكمة أو مراحيضها تقع بجوار الغرفة التى انسحب إليها القاضى. ولكن أفترض أنها تجاورها. وعلى أية حال يبدو لى أن غرفة المداولة هى أنسب مكان يطالع فيه القاضى عدد يولية/ أغسطس من المجلة».

وبعد خروج القاضى كوريجان من غرفة القضاة حيا كوين بابتسامة ثم جلس على المنصة. ثم وقف كوين ليتحدث. وكذلك تأهبت للتحدث محررتا المجلة هيب وأندرسون. وعندما تنبه كوين إلى أن محررتى المجلة تجلسان بجواره انتهرهما بقوله: ماذا تفعلان هنا، هذا ليس مكانكما. عودا إلى مقعديكما. فابتعدت المحررتان وبدأ كوين فى إلقاء كلمته. بدأ كوين كلامه فأكد أن جيمس جويس كاتب جاد وصاحب شهرة عظيمة فى الأوساط الأدبية. ثم انتقل إلى مناقشة إذا ما كان عدد المجلة الصادر فى يولية/ أغسطس بذيئا من الناحية القانونية. ومضى يعترف بأن الأدب والفن بطبيعتها يحتويان على قذارة. ولكنها قذارة لا تفسد بل

تنفر من الإتيان بأفعال قذرة. وأفاد كوين بأن القذارة التى نجدها فى الأدب والفن لها أثر صحى وأخلاقى، لأنها تنفر من الرذيلة وتصورها على نحو مقزز، فى حين أن القذارة - حسب المفهوم القانونى - تشجع على الرذيلة وتصورها بشكل جذاب.

وطبقا للجانب النظرى من المحاجة التى استخدمها كوين للدفاع عن رواية «يوليسيس» كعمل أدبى فإنه لا يمكن بأى حال من الأحوال اعتبارها بذيئة لأن قذارتها قمينة بتنفير القارئ من البذاءة. ومن ثم فإن للرواية نفعا أخلاقيا، الأمر الذى يعنى أن هذه الرواية - رغم كل ما قد تتضمنه من قذارة - لا يمكن أن تكون بذيئة بالمعنى القانونى. ثم قارن كوين قذارة جويس بقذارة الكاتب الإنجليزى المعروف جوناثان سويفت والكاتب الفرنسى الشهير رابيليه. ولكن كوين أخطأ عندما ميز بين قذارة جويس وأوسكار وايلد بقوله إن قذارة الثانى تفسد الأخلاق فى حين أن قذارة الأول لا تفسدها.

ورغم هذا فقد ذهب كوين فى محاجته إلى أن المعيار العملى الذى نقيس به بذاءة أى شىء هو مقدار ما يخلفه هذا الشىء من سوء؛ مؤكدا أن معالجة جويس للجنس لا تغرى الرجال بارتياد المواخير وبيوت الدعارة أو الارتماء فى أحضان الساقطات ولكنها تنفرهم منها. ورغبة منه فى توضيح عدم بذاءة الجزء من حكاية نوسيكا المنشور فى عدد يولية/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة ذهب كوين فى محاجته إلى التالى:

«لو افترضنا أن شابا وقع فى غرام امرأة فكتبت إليه أمه تطلب منه الابتعاد عنها بقولها: انظر يا ولدى، المرأة التى تعشقها دميمة، وهى من

النوع الذى ينبعث العفن منه. وهى مترهلة وجسدها باهت اللون ورائحة فمها كريهة. وهى تصدر أصواتا مزعجة حين تأكل وحين تقضى حاجتها.. إن بعض الناس المهذبين قد يعتبرون هذه الأوصاف قذرة. ولكنها رغم ذلك غير قذرة بالمعنى القانونى. فمثل هذه الأوصاف الكريهة من شأنها أن تنفر الشاب من محبوبته وتجعله يبتعد عنها باشمئزاز وتقزز».

وأضاف كوين أن معيار البذاءة يتوقف على ما تتركه فى نفس الشخص العادى سواء كان رجلا أم امرأة من سوء، وليس على ما تتركه فى نفس الشخص الداعر أو فى نفس راهبة فى أحد الأديرة. وبطبيعة الحال كان كوين يعلم أن عدد يوليو/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة وقع فى يدى تلك الفتاة الشابة التى شكت لوالدها المحامى الذى بدأ بتحريك الدعوى القضائية. غير أنه رفض أن يعتبر هذه الفتاة محكا أو معيارا سليما للحكم على بذاءة حكاية نوسيكا.

وهكذا سعى كوين إلى تحطيم القاعدة القانونية السائدة آنذاك والتى أسسها القاضى هيكلين، والتى حددت تعريف البذاءة من الناحية القانونية بأنها تلك المادة التى تجنح إلى إفساد عقول الذين لديهم استعداد للتأثر بها.. أى أن كوين سعى إلى استنان قاعدة قانونية جديدة تخالف قاعدة هيكلين القانونية والتى كانت تستخدم كمعيار للبذاءة فى تلك الأيام.

وأخيرا اختتم كوين كلمته بقوله إن حكاية نوسيكا _ لن تفسد أخلاق الشخص العادى أو أى شخص فى سن الشباب. فالشخص الطاهر البرئ لن يفهم الإشارات والمضامين الجنسية لهذه الحكاية.. ومن ثم لن يتعرض لخطر الفساد. وكذلك من الناحية المقابلة نجد أن الشخص القادر على

فهمها على درجة من التعليم تحميه من مخاطر هذه المضامين على أخلاقه..

استمع القاضى فى صبر إلى مجادلات كوين. ولكنه ظل فى قرارة نفسه مقتنعا بمنطوق حكم القاعدة القانونية التى استنها هيكلين إذ قال: «هناك حكاية واحدة فى الرواية يمكن لأى شخص أن يفهمها. وهى حكاية الرجل الذى مارس العادة السرية فى لباسه الداخلى.. فهى حكاية لا يمكن لأحد أن يخطئ فى فهمها. وأظن أنها حكاية قذرة ووسخة وينطبق عليها قانون البذاءة حيث إن أى شاب برئ يستطيع أن يفهمها».

ولم يجد كوين الآن بداً من مهاجمة القاضى واتهامه بأنه يملك «عقلا فاسدا ومنحلا لأنه لا يمكن لأى إنسان أن يفهم معنى الفقرة موضوع النقاش إلا إذا كان عقله فاسقا ومنحلا».

استقبل القاضى هذا الهجوم عليه بسعة صدر وإحساس بالتسلية ولكنه ظل متمسكا بوجهة نظره. ولهذا استدعى المحررتين أندرسون وهيب للمثول أمام محكمة الجلسات الخاصة وحدد كفالة قدرها ٢٥ دولاراً للإفراج عن كلا المتهمتين. وهو الأمر الذى استشعر محاميهما كوين أنه سيحدث من البداية. ثم غادر كوين قاعة المحكمة رافضا الحديث مع رجال الصحافة.

لم يبق الآن أمام كوين سوى خيارين أولهما أن يحاول مرة أخرى إقناع وكيل نيابة المنطقة بصرف النظر عن القضية نظير وعد بالتوقف عن نشر رواية ««يوليسيس»». ولكن أمله فى الاستجابة إلى طلبه كان واهيا للغاية

لأن ذلك القاضى رفض المساومة. ولهذا لم يبق أمام كوين سوى الخيار الثانى المتمثل فى تأجيل المحاكمة لأطول مدة ممكنة، آملا أن يتمكن جيمس جويس من الانتهاء من كتابة رواية «يوليسيس» ونشرها بين دفتى كتاب قبل صدور حكم محكمة بإدانتها. ولكن كوين أدرك أن هذه الخطة لن تنجح وأنه لن يستطيع تعطيل حكم المحكمة لحين يتمكن جويس من إنهاء روايته. ولهذا لجأ كوين إلى حيلة أخرى لكسب الوقت تتمثل فى نقل القضية من محكمة الجلسات الخاصة مرتين، أى نقلها إلى محكمة أخرى.

تقدم كوين بطلب لنقل القضية من محكمة الجلسات الخاصة حيث تتم المحاكمة أمام ثلاثة قضاة إلى محكمة الجلسات العامة حيث تتم المحاكمة أمام قاض واحد وهيئة محلفين. واستند فى طلبه إلى أن هيئة المحلفين أقدر من ثلاثة قضاة على تحديد بذاءة أى كتاب. ولم يكن كوين يأمل كثيرا من وراء الالتجاء إلى هذا التكتيك ولكن أراد بذلك تعطيل المحاكمة بقدر استطاعته. على أية حال نجح كوين فى تأجيل انعقاد محكمة الجلسات الخاصة للمرة الثانية حتى ٤ فبراير ١٩٢١ . وعند انعقاد محكمة الجلسات العامة التى رأسها صديق قديم لكوين اسمه القاضى كرين دافع كوين عن محررتى مجلة الريفيو الصغيرة بقوله إن حظر عددها الصادر فى يوليو/ أغسطس ينطوى على خسارة مالية فادحة لهاتين المحررتين وللمجلة ولجيمس جويس الذى سيفقد حقوق الملكية الفكرية عن روايته فى الأراضى الأمريكية. ومن الغريب أن هذه المحاجة التى ساقها كوين راقت فى عين القاضى كرين فأقر أن هناك حقوقا أدبية مهمة وحقوقا خاصة بالمؤلف تتعرض للخطر، ومن ثم يمكن أن يجد حلا لهذه

المشكلة بسرعة أكبر عن طريق محكمة الجلسات الخاصة. وأضاف القاضى كرين أن اشتراك هيئة المحلفين فى المحاكمة من شأنه إطالة مدة نظر القضية بحيث إنها قد تمتد إلى عام أو عام ونصف عام، الأمر الذى اضطر كوين إلى أن يجرب حظه ويقبل نظر القضية أمام محكمة الجلسات الخاصة حيث نجح فى تأجيل نظرها حتى يوم ١٤ فبراير ١٩٢١ .

وانتاب كوين شعور أكيد بأن إدانة «يوليسيس» قادمة لا محالة. ولهذا قرر الاستمساك بالخط الذى اتخذه للدفاع عن الرواية ووجد من المناسب أن يسوق أمام المحكمة نماذج مثيلة كالتى وردت فى رواية جويس والتى يسوقها خبراء متخصصون فى الأدب المقارن. ولكنه كان يعلم أن المحكمة لن تسمح له بعقد مثل هذه المقارنات.

وقبل حلول ما يقرب من ستة أيام على انعقاد المحاكمة قرر كوين تغيير استراتيجيته، فطلب من محررة المجلة أندرسون إحضار شاهدين أو أكثر للدفاع عن سياستها ودوافعها، كما طلب منها أن تقترح ما لا يقل عن اسمى شخصين للشهادة بجدية كتابات جويس وجدية حكاية «نوسيكا».

وعندما حان موعد انعقاد المحكمة توجه إلى المنصة رئيس القضاة فردريك كيرنوشان وزميلاه القاضيان جيمس ماك إيزنى وجوزيف موس فوقف الجميع احتراما لهيئة المحكمة. وجال بخاطر المحررة مارجريت أندرسون بدافع التحدى عدم الوقوف. ولكن المحامى كوين نصحها بالوقوف كما نصحها بالانزواء أثناء المحاكمة. واتخذت المحكمة نفس الإجراءات التى سبق اتخاذها فى محكمة شرطة جيفرسون ماركت منذ أربعة شهور خلت. وكرر سمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة نفس

الشكوى ضد محررتى مجلة الريفيو الصغيرة التى سبق أن أدلى بها منذ ما يقرب من أربعة شهور.

بدأ كوين دفاعه بشرح أهمية جيمس جويس وشهرته فى عالم الأدب. ولكن هذا النوع من الدفاع كما توقع كوين قوبل بالرفض من قبل القضاة الذين قالوا له إنه لا يوجد ثم علاقة بين هذه المحاجة وبين لب القضية الذى يتلخص فيما إذا كانت بعض فقرات رواية «يوليسيس» تتضمن انتهاكا للقانون أم لا.

ويبدو أن إحجام القضاة عن مراعاة أهمية وشهرة جويس من الناحية الأدبية جعل كوين يصرف النظر عن الحديث عن الفرق بين القذارة الموجودة فى الأدب والقذارة من وجهة نظر القانون. وآثر كوين بدلا من ذلك أن يتحدث بطريقة براجماتية عما إذا كانت رواية «يوليسيس» قمينة بإفساد الأخلاق وانتهاك الفضيلة. ولهذا نراه يغير نهج دفاعه أمام محكمة الجلسات الخاصة ويركز هذه المرة على استعصاء فهم الرواية على عامة القراء. ومن ثم فإنها لا يمكن أن تكون سببا فى إفساد أخلاقهم. وكما قال كوين لجويس فيما بعد: كانت هذه الوسيلة الوحيدة لإخراس الثلاثة قضاة الأغبياء.

وحتى يثبت استغلاق روايةيوليسيس على الأفهام طلب كوين من المحكمة السماح للشهود الخبراء بتقييم الأثر المحتمل الذى تتركه حكاية نوسيكا فى قراء مجلة الريفيو الصغيرة. ومن الغريب أن المحكمة أجابته إلى طلبه. فبدأ كوين بالنداء على الشاهد الأول جون كوبر بويز الذى شهد بأن رواية يوليسيس مليئة بالطلاسم والألغاز، وعمل فلسفى غامض لا

يمكن أن يكون سببا فى إفساد الأخلاق. وأضاف أنه عمل أدبى رائع لا يفسد عقول الشابات. وأيضا توصل الشاهد الثانى فيليب مويلر العامل فى نقابة الممثلين إلى نتيجة مماثلة. وعلى أية حال بدأ الشاهد الثانى شهادته بالقول إن حكاية نوسيكا بطريقة سيجموند فرويد تكشف عما يدور فى اللاشعور، مؤكدا للقضاة أنه لا يرى فى هذه الحكاية ما يثير الاشتهاء الجنسى، وأنحى أحد القضاة باللوم على هذا الشاهد بقوله: «أراك تحدثنا بلغة أقرب ما تكون إلى الروسية. حدثنا بلغة إنجليزية واضحة إذا أردت أن نفهم ما تقول».

وبسبب إلحاح هذا القاضى على أن يقوم الشاهد بتبسيط وجهة نظره فى الأثر الذى تتركه نوسيكا فى القارئ العادى قال الشاهد مويلر أعتقد أن الحكايةِ سوف يستغلق عليه فهمها. ويبدو أن رده لم يكن كافيا لإقناع القضاة حيث إن أحدهم بادر بسؤاله: «ولكن قل لنا على وجه التحديد ما الأثر الذى تتركه؟».

وهكذا أيد الشاهدان بويز ومويلر ما ذهب إليه كوين من أن القارئ العادى سوف يعجز عن فهم رواية «يوليسيس» ومن ثم فإنها لن تترك فيه أى أثر مفسد. غير أن مويلر شعر من ردود فعل القضاة أنه بحاجة إلى المزيد من الشهادات المؤيدة لوجهة نظره، الأمر الذى جعله يعلن عن وجود ثلاثة شهود آخرين على استعداد للإدلاء بأقوالهم. هؤلاء الشهود الثلاثة هم سكوفيلد تاير محرر مجلة ديال والقس الاسكوبالى برسى ستكنى جرانت وإرنست بوند رجل العلم والناقد الأدبى المعروف بكتاباته عن «يوليسيس». ولكن القضاة رفضوا الاستماع إلى المزيد من هؤلاء الشهود

وقرروا أن يقرأوا بأنفسهم عدد يولية/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة. ولهذا أجلوا المحاكمة لمدة أسبوع ينتهى فى ٢١ فبراير ١٩٢١ .

وعند إعادة المحاكمة قام كوين بمرافعة اعتبرها كثير من الحاضرين فذة ولكن المحررة أندرسون انتقدتها واعترضت عليها. بدأ كوين مرافعته بإعادة التأكيد على غموض رواية «يوليسيس» واستغلاقها على الفهم ووصفها بأنها شبيهة بالفن التكعيبى، وبأنها قد تكون تجريبية ولكنها بكل تأكيد غير مفسدة للأخلاق. وسبب غموضها لا يرجع إلى التجديد الفنى فحسب بل أيضا إلى فشلها من الناحية الفنية. ومضى كوين يقول إن حكاية نوسيكا تتسم بالغموض بسبب سوء استخدامها لعلامات الوقف Punctuation نتيجة ضعف البصر الذى عاناه المؤلف. واعترف كوين بعجزه عن فهم رواية «يوليسيس» وأضاف أنه يرى أن جويس بالغ فى إجرائه لهذه التجربة. وذهب فى مرافعته إلى أن أى شخص يستطيع فهم حكاية نوسيكا لابد أن يصيبه الغثيان والتقزز من معالجة المؤلف لأمور الجنس. وهكذا اعترف كوين أن بعض أجزاء الرواية تدعو إلى الاشمئزاز ولكن الاشمئزاز الذى تثيره لا يزيد عما يثيره كل من سويفت ورابيليه وشكسبير من اشمئزاز. فضلا عن أن الاشمئزاز الذى يثيره جويس فى روايته لا يزيد على ما نجده فى بعض أجزاء الكتاب المقدس. ثم أصر كوين على ضرورة أن يكون الشخص العادى المعيار الذى يحدد إذا كانت الرواية بذيئة أم لا. وانتهى كوين إلى القول إن المؤلف لم يكتب روايته لتقرأها بنات المدارس.

وبعد انتهاء كوين من الإدلاء بدفاعه أعلن القاضى فورستر عزمه

على قراءة الصفحات السيئة بصوت عال حتى يتلمس الأثر الذى تتركه فى نفس المستمع لها. ولم يعترض سمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة أو أى أحد على اقتراح فورستر. وأراد أحد القضاة أن يوفر على المحررة أندرسون حرج قراءة البذاءات فى حضرتها، ولكن كوين احتج على ذلك بقوله: «ولكنها المسئولة عن النشر» فأجابه القاضى صاحب الاقتراح بقوله: «إنى متأكد من أنها لم تفهم مغزى ما قامت بنشره». وسمحت المحكمة لفورستر أن يدير دفة المحاكمة على النحو الذى أراد.

وأخيرا تخلى القاضى المعترض على قراءة البذاءات فى حضرة السيدة أندرسون عن اعتراضه ووافق على اقتراح فورستر بقراءة الفقرات البذيئة فى قاعة المحكمة. غير أن سجلات المحكمة تخلو من ذكر الفقرات المقروءة. ويبدو أن الفقرات التى تليت فى المحكمة كانت تلك التى مهدت للفقرات الأكثر بذاءة. وما إن انتهى فورستر من تلاوتها حتى انفجر الحاضرون فى الضحك.

ثم قام القاضى فورستر بشن هجوم شديد الوطأة على رواية «يوليسيس» ومجلة الريفيو الصغيرة وعلى المحامى كوين نفسه، الأمر الذى دفعه إلى الرد على فورستر وفاجأ القضاة بقوله: انظروا إليه (أى فورستر) وهو يلهث فى نهاية هجومه وقد شوه الغضب الشديد وجهه وتقلصت عضلاته. هل هناك ما يدل على أن رغبات الجسد الشهوانية تمتلكه؟؟ وهل هناك ما يدل على أن قراءاته لهذا الفصل من الرواية يدفعه إلى إطفاء ظمئه الجنسى بالارتماء فى أحضان عاهرة! هل تمتلكه رغبات الجنس. لا على الإطلاق. فهو يبدو كشخص يريد أن يشفط دم إنسان ويزج بجيمس جويس

فى السجن. وهو أيضا يريد أن يرسل هاتين المحررتين إلى السجن كما أنه يتمنى لو استطاع عزلى عن مهنة المحاماة. إن صدره يمتلئ بالحقد المسموم والغضب والقسوة. ولا توجد فى جسده ذرة واحدة من الاشتهاء الجنسى. فالغضب والكراهية يعميانه. وهو دليلى الرئيس على الأثر الذى تتركه قراءة رواية «يوليسيس» فى النفوس.

ويذكر كوين أن انفجار القضاة فى الضحك جعله يعتقد أنه سوف يكسب القضية. واعترف اثنان من القضاة أنهما لم يفهما الرواية فقد قال أحدهما - وهو القاضى ماكانرينى: أعتقد أن هذه الرواية غير مفهومة. غير أن القاضى فريدريك كيرنوشان قال إنه فهم ما يرمى إليه جويس فى هذا الفصل من روايته. واستطاع هذا القاضى التأثير فى القاضيين الآخرين.

ثم حكمت المحكمة بأن محررتى مجلة الريفيو الصغيرة أندرسون وهيب مذنبتان لنشرهما مادة بذيئة. وقضت على كل منهما بدفع خمسين دولاراً غرامة وأمرتهما بالكف عن نشر أية أجزاء أخرى من الرواية. واقتيدت المحررتان لأخذ بصماتهما وعمل فيش وتشبيه لهما. وهكذا أوقفت المحكمة نشر ما اعتبرته المحررة أندرسون بأنه رائعة الجيل النثرية..

نسبت المحررتان أندرسون وهيب الخسارة التى لحقت بهما إلى قصور فى الثقافة الأمريكية وسوء دفاع كوين. وزاد من سخطهما على كوين قوله أمام محكمة الجلسات الخاصة إن الغموض الذى يكتنف رواية جويس يرجع إلى ما يشوبها من خلل فنى. فضلا عن أنهما رفضتا الأساس النظرى الذى أقام عليه كوين دفاعه عن «يوليسيس» والذهاب فى اعترافه

بأنه يمكن للعمل الأدبى أن يكون بذيئا فى حين رأت أندرسون أنه لا يمكن للأدب أن يتسم بالبذاءة تماما مثل العلم الذى لا يمكن أن يتسم بالانحلال. وذهبت أندرسون إلى أن المحك الوحيد للحكم على أى أدب هو مقدار ما ينطوى عليه من جمال. وتمضى أندرسون فى شرح الأسس الجمالية التى ينبنى عليها العمل الفنى فتقول:

أولا بالنسبة للحكم على العمل الفنى يتعين علينا أن نستخدم المعيار الجمالى وليس المعيار الأخلاقى أو الشخصى أو حتى المعيار التقنى. والأحاسيس الإنسانية لا تنتج هذا النوع من الأحكام فهذه الأحكام نتاج القدرة على إثارة الأحاسيس الفنية التى تختلف عن الأحاسيس الإنسانية.

وثانيا: إن إناسا بعينهم هم وحدهم القادرون على إثارة هذه الأحاسيس الفنية (أو الأحاسيس الجمالية). هؤلاء الناس هم الفنانون والنقاد الذين يملكون قدرا من القدرة على التقييم لا يقل عن قدرة الفنان على الخلق. ومعنى هذا أن المحررة أندرسون ترى أنه لا يمكن الحكم على الفن بالمعايير الأخلاقية العادية كما أنها رفضت قدرة الشخص العادى _ الذى يعتمد على إدراكه العادى _ على الحكم على الفنون والآداب. فلا غرو إذا رأيناها تعبر عن سخطها على الأسلوب الذى اتبعه كوين فى الدفاع عن رواية «يوليسيس».

وعلى النقيض من ذلك ذهب كوين فى دفاعه عن الرواية إلى أن الأدب يمكن أن يكون بذيئا وأن الرواية ليست خالية من البذاءة. ولكنه جادل بأن بذاءة «يوليسيس» منفرة ومن ثم فإنها غير مفسدة للأخلاق. ومعنى هذا أن الدفاع شارك الإدعاء اعترافه بأنه يمكن الحكم على الفنون

من منظور أخلاقى. ولكن كوين حاول أن يقنع المحكمة بأن أثر حكاية نوسيكا فى الشخص العادى ليس ضارا من الناحية الأخلاقية. ومعنى هذا أن كوين فى محاجاته التى ساقها دفاعاً عن «يوليسيس» لم يعزل عزلا تاما العمل الفنى عن الأخلاق. وهذا فى ذاته سوء فهم لرواية «يوليسيس». وليس أدل على اعتراف كوين بوجود البذاءة فى الأدب عندما اعتبر أدب أوسكار وايلد بذيئا. وإحقاقا للحق وإنصافا لدفاع كوين عن أدب جويس يجب أن نذكر أنه حاول إقناع القضاة إن حكاية نوسيكا عمل أدبى جاد. ولكن القضاة رفضوا الاقتناع بهذه المحاجة واعتبروا أن جدية «يوليسيس» ليست لها أى اعتبار فى هذه الحالة. وثمة نقطة أخرى هى أن كوين فشل فى إقناع القضاة بأن حكاية نوسيكا تستعصى على فهم الشخص العادى. ثم إن الفقرات التى تليت أمام القضاء اتسمت بالشهوانية، الأمر الذى جعل من العسير على كوين الادعاء بأنها لا تثير شهوة الجنس فى قارئها.

ويجدر بالذكر أن إرنست بويد تناول هذه المشكلة فى مقال نشره عقب إصدار محكمة الجلسات الخاصة حكمها ضد الرواية وضد المجلة التى نشرتها. وشكا بويد من تخلف القضاء الأمريكى وافتقاره إلى التمدن مقارنة بالقضاء الفرنسى الذى حكم ببراءة رواية مدام بوفارى لفلوبيرت عام ١٨٥٧ . ونوه بويد بأمانة الادعاء الفرنسى لأنه اعترف منذ البداية أنه لا يصح الحكم على العمل الفنى من خلال فقرات منفصلة.

ويذهب بعض المعلقين إلى أن المحاجات التى استخدمها كوين هى نفس المحاجات التى ساقها المحامى موريس إرنست عند إعادة محاكمة رواية «يوليسيس» فى عام ١٩٣٢/١٩٣٣ . ولكن يبدو أن هناك خلافا

جوهريا فى كلتا الحالتين، حيث إن إرنست استطاع أن يؤسس محاجته على المبدأ المنادى بضرورة الحكم على العمل الفنى ككل لأنه من الخطأ الحكم عليه كأجزاء. ولا شك أن كوين كان يدرك أهمية مناقشة القضية من هذه الزاوية. ولعل هذا يفسر حثه للمؤلف جويس (عن طريق صديقه إزرا باوند) على التوقف عن نشر رواية «يوليسيس» كمسلسل والانتظار لحين نشرها مكتملة بين دفتى كتاب. يقول كوين فى هذا الشأن:

«هذا عمل فنى فريد من نوعه للغاية. ولكنه ليس العمل الذى يصلح نشره فى مجلة حيث إن خلفية هذه الرواية وإطارها والضوء الملقى عليها عناصر مهمة فى عرض هذا العمل الفنى... هناك أشياء فى رواية «يوليسيس» تصلح للنشر بين دفتى كتاب. ولكن من السخف أن نعتقد أنها صالحة للنشر فى مجلة شهرية».

غير أن المؤلف رفض الاستجابة إلى طلب كوين بوقف نشر روايته فاستمر فى نشرها مسلسلة. الأمر الذى أحرج كوين ووضعه فى موقف صعب. وفى أواخر عام ١٩٣٤ اعترف أحد القضاة المؤيدين لقرار القاضى ولسى لأصحابه ومعارفه بأنه كان سيصدر حكما بإدانة رواية «يوليسيس» لو أن الفقرات البذيئة قدمت إليه مجتمعة الفقرة تلو الأخرى. ولعل هذا يخفف من وطأة اللوم الموجه إلى كوين بسبب فشله فى رفع الحظر عن هذه الرواية عام ١٩٢١ .

وبعد مضى بضعة أسابيع من إدانة المحررتين مارجريت أندرسون وجين هيب بدأت عواقب حظر «يوليسيس» تظهر. ففى باكورة شهر أبريل عام ١٩٢١ كتب بـ.دابليو هيوش إلى المحامى كوين معبرا عن رفضه نشر

رواية جـويس: حكمت مــحكمــة فى نيـويورك بأن جـزءا من رواية (يوليسيس) منشورا فى مجلة الريفيو الصغيرة ينطوى على انتهاك للقانون. ولهذا فإنى غير مستعد لنشر الكتاب إلا إذا أجريت بعض التغييرات التى سلمتها إلى الآنسة هـ.س. ويفر بصفتها وكيلة جويس فى لندن. وبالنظر إلى بيانك الذى يقول إن جويس يرفض رفضا باتا إجراء أية تغييرات فى الرواية فإنى أجد نفسى مضطرا إلى رفض نشرها. وكما توقع كوين حذا ناشرون آخرون حذو هيوش. وبحلول شهر ابريل ١٩٢١ ملأ اليأس قلب جيمس جويس مما جعله يقول لسيلفيا بيتش صاحبة جماعة شكسبير وفرقته، ومقرها باريس، ما يلى: إن كتابى لن يظهر الآن مطلقا، فأبلغته الآنسة بيتش بأنه يشرف فرقتها أن تتولى إنتاج رواية «يوليسيس». ورغم سنوح هذه الفرصة لتقديم رواية «يوليسيس» إلى جمهور القراء فى باريس فإن سابقة حظر نشرها فى مجلة الريفيو الصغيرة قضت على أية بادرة أمل فى نشرها فى البلاد التى تتحدث باللغة الإنجليزية لأمد طويل، فضلا عن أن نشرها فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية تأثر كثيرا بالطريقة المستهجنة لاستقبال النسخة الصادرة فى باريس.

تعرضت رواية «يوليسيس» للحظر أربع مرات عند نشرها كمسلسل فى مجلة الريفيو الصغيرة. وكان هذا الحظر على يد مصلحة البريد الأمريكية، وذلك قبل أن تقوم محاكم نيويورك بحظرها حظرا كاملا فى عام ١٩٢١ . وفى إنجلترا فشلت محاولة نشرها كمسلسل بسبب رفض المطبعجية طبعها. ورغم نشرها فى باريس عام ١٩٢٢ فإنها ظلت محظورة فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية حتى سمحت الولايات

المتحدة بنشرها عام ١٩٣٣ . غير أن روايته فينجانز ويك كانت أوفر حظا، فقد ظهرت مسلسلة عام ١٩٢٤ في دورية تصدر في باريس بعنوان ترانزسيون (التحول). ومن الخطأ أن تظن أن نشر رواية فينجانر ويك بهذا اليسر يرجع إلى خلوها من البذاءة والفحش الشائع في رواية «يوليسيس». يقول الناقد ستيوارت جلبرت في هذا الشأن بأن الإضحاك الذي نجده في رواية فينجانز ويك يمثل قمة الهزل المعربد الصاخب الذي نجد بعضا منه في روايات جيمس جويس الأخرى مثل أهل دبلن وصورة الفنان في شبابه و«يوليسيس». ويتناول جويس في رواية فينجانز ويك العلاقة الجنسية المحرمة بين أب وابنته. وهو موضوع يشير إليه المؤلف إشارة عابرة في رواية «يوليسيس»، الأمر الذي يدل على أن تعرض كتاباته للحظر لم يثنه مطلقا عن المضي في بذاءاته ومعالجة الموضوعات المحرمة.

وكما ذكرنا ظلت رواية «يوليسيس» محظورة في البلاد المتحدثة باللغة الإنجليزية حتى باكورة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين. وفي أواخر عام ١٩٢٨ شنت جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة - بقيادة جون سمنر - حملة على سوق جوثام للكتب. وقامت بضبط نسخة من رواية «يوليسيس» وأربعين نسخة من الكتاب الذي ألفه بوردان جوردان بعنوان مفتاح لفهم «يوليسيس». وإذا كانت بذاءة «يوليسيس» يصعب للغاية إدراكها فإنها تستغلق تماما على الإفهام في رواية فينجانز ويك حيث أن مجرد استجلاء غموضها يقتضي من القارئ جهدا شاقا. وعلى أية حال أدرك جويس أن البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية لن تقبل نشر رواية «يوليسيس» بأكملها دون حذف إلا إذا ترجمت إلى لغة أجنبية مثل اليونانية أو

البلغارية. وقال للآنسة ويفر ساخراً إنه من الجائز أن ترى روايته طريقها إلى النشر فى إفريقيا. والجدير بالذكر أن جيمس جويس شكا نائحاً إلى أخيه ستانيسلوس من حذف بعض فقرات فى حكاية سيكولوبس وذهب فى شكواه إلى أن النسخة الكاملة من رواية «يوليسيس» لن ترى طريقها إلى النشر إلا فى اليابان.

كان أمام جيمس جويس خياران كى يتجنب فرض الحظر على كتاباته: أولهما أن تترجم هذه الكتابات إلى لغات أجنبية وتنشر فى بلاد غريبة تعجز السلطات عن فهمها وإدراك ما تنطوى عليه من بذاءة. أما الخيار الثانى فيتمثل فى استمرار نشر كتاباته فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية بلغة غريبة تعجز السلطات عن فهمها فلا تستطيع أن تقرر إذا كانت بذاءتها تستدعى المصادرة أم لا. ومن الواضح أن جويس لجأ إلى الخيار الثانى عند تأليف رواية فينجانز ويك. ولا شك أن هذين الخيارين يتضمنان غربة الكاتب عن مجتمعه وإحساسه بالعيش فى منفى.

وتدل الوثائق التى نشرتها مكتبة أيرلندا القومية مؤخرا على أن صراع جيمس جويس مع الرقابة ترك أثره الواضح فى الأسلوب الذى اتبعه فى كتابة فينجانز ويك، كما أنه يدحض الرأى القائل بأن جويس كان يستخف بالرقابة ولا يبالى بها. بالعكس، فنحن نجد أنه كان مهموما بصدامه مع الرقابة فى الولايات المتحدة لدرجة أنه أصر _ عند نشر الطبعة الإنجليزية فى رواية «يوليسيس» – على تضمينها الأحكام القضائية الصادرة فى الولايات المتحدة ضدها.

يرجع أول صدام بين جيمس والرقابة إلى فترة التحاقه بالسنة

الثانية الدراسية (١٨٩٩/ ١٩٠٠) بجامعة دبلن عندما سعى عميد كليته إلى حظر مقال سطره بعنوان الدراما والحياة ذهب فيه الطالب جويس إلى رفض فكرة انطواء الدراما على درس أخلاقى. أما صدامه الثانى بالرقابة فيرجع تاريخه إلى أكتوبر عام ١٩٠١ عندما كتب مقالا هاجم فيه المسرح الأدبى الأيرلندى فى دبلن متهما إياه بتقديم مسرحيات أيرلندية ذات مستوى عادى. فقد رفضت المجلة الصادرة بعنوان مجلة القديس إسطفان مقالا له بعنوان زمن السوقة والدهماء لأنه يتضمن إشارة إلى الكاتب أنونزيو الذى حظرت الكنيسة الكاثوليكية قراءة أعماله ووضعتها فى قائمة الممنوعات.

وأدى صراع جويس الباكر مع الرقيب إلى إحساسه المتنامى بأن السلطة والمؤسسات الدينية تتآمر ضده بسبب أفكاره الثورية. ويتضح لنا بجلاء من الخطاب الذى بعث به إلى الليدى جريجورى أن الإحساس بالاضطهاد الذى لازمه هو الدافع الذى جعله يتخذ قرارا بالرحيل من أيرلندا إلى باريس عام ١٩٠٢ . يقول مؤلفنا فى هذا الخطاب أريد تحقيق ذاتى سواء كانت ذاتى عظيمة أو ضئيلة، فأنا أعلم أن كنيستى لا تمقت هرطقة أو فلسفة أحد مثل مقتها لى كإنسان.. ولهذا السبب سوف أشد رحالى إلى باريس.. وعلى الرغم من أنه يبدو لى أن بلادى طردتنى من أراضيها بسبب كفرى فإنى لم أجد حتى يومنا الراهن من هو أكثر منى استمساكا بالدين.

ويذهب إلمان إلى أن جويس كان بحاجة إلى اللجوء إلى المنفى كحجة يتعلل بها لتبرير ذاته وينحى باللوم على الآخرين. وهو مثل سائر

الثوار لا يستطيع أن ينمو وينتعش إذا لم تكن المعارضة جزءاً لا يتجزأ من طبيعته. وكما يقول ريتشارد براون ليس هناك أدنى شك فى أن المنفى ارتبط فى ذهنه بالرقابة على الدوام. وقد تعمق شعوره بالغربة والمنفى عند عودته إلى أيرلندا عام ١٩٠٣ بسبب اشتداد المرض على أمه. علما بأن رحيله للمرة الثانية إلى منفاه الاختيارى فى باريس عام ١٩٠٤ حدث عقب صدامه فى مناسبتين مع الرقيب. كان صدامه الأول بشأن مقال ضمنه سيرته الذاتية بعنوان صورة الفنان وذكر أنه فنان متمرد يستلهم إرشاده من المهرطقين والمارقين على الدين. وقد تقدم جويس بهذا المقال إلى إحدى المجلات فرفضت نشره. يقول شقيق جويس إن السبب الذى دفع المجلة إلى رفض نشر مقاله هو ما أورده مؤلفنا فيه بشأن تجاربه وخبراته الجنسية. وأثار هذا الحظر غضب مؤلفنا ودفعه إلى البدء فى كتابة عمل جديد بعنوان اسطفان البطل. وكان العمل التالى الذى تعرض للحظر حديثا إذاعيا بعنوان المكتب المقدس. وفى هذا الحديث الإذاعى المحظور شن جويس هجوماً على معاصريه من بنى جلدته متهما إياهم بالنفاق وإدعاء الحشمة وتجنب الخوض فى المسائل الحساسة. علما بأن الإذاعة الأيرلندية لم تكن الجهة الوحيدة التى رفضت هذا المقال، فقد حاول مؤلفنا نشره فى مجلة القديس اسطفان فكان مآله الرفض مثل مقاله السابق الذى حاول نشره فى هذه المجلة تحت عنوان: زمن الدهماء والسوقة.

ولم ينس جويس الأسباب التى عجلت برحيله فى المرة الثانية إلى منفاه فى باريس. فقد أجبره شخص يدعى أوليفر سان جون جوجارتى على ترك مسكنه فى عمارة مارتللو فى منتصف شهر سبتمبر. يقول إلمان

فى هذا الشأن: «هذه الحادثة (طرده بالقوة من المسكن) أكدت عزمه على مغادرة «مصيدة الأسماك» كما ظل يسمى القوى التى هددت أمانته الأخلاقية.. ولم يعد هناك أمل كبير فى أن يتمكن من الاستمرار فى عمله فى بلده حيث كان يرغب فى أن يصبح كاتبا وليس كبش فداء. وتوقع أن تكون حياته فى أوربا أقل فى منغصاتها».

وقد جسد لنا جويس شخصية جوجارتى الذى قام بطرده من مسكنه بالقوة فى شخصيته باك موليجان فى رواية «يوليسيس»، حيث نرى أن ستيفن يعتقد أن كراهية موليجان له مبعثها الخوف من فنه. وفى الليلة التالية لطرده من مسكنه بعمارة مارتللو برفقة عشيقته نورا، لجأ إلى منفاه مرة أخرى. وليس هناك شك فى وجود علاقة وثيقة بين أدب جيمس جويس ولجوئه إلى بلاد الغربة والنفى، كما أنه لا يوجد أدنى شك فى أن منفاه ترك بصمات واضحة فى أدبه. وقد اعترف جويس بهذه العلاقة فى باكورة عام ١٩٠٥ حيث قال: لقد عاهدت نفسى على أن أقبل وضعى الراهن كشخص يعيش فى منفاه الاختيارى _ أليس كذلك؟ ويبدو لى هذا مهما لأنه من المحتمل أن يساعدنى هذا بدرجة كافية فى مستقبلى الشخصى.. فضلا عن أهميته لأنه يزودنى بالنغمة التى أقترح أن أنهى بها روايتى البطل.

واسم هذه الرواية المشار إليها هى «ستيفن البطل». وهى رواية تركها جويس دون أن يكملها. ولكنه بدلا من أن ينهى هذه الرواية نراه يختتم بها روايته صورة الفنان فى شبابه حيث نطالع: يقول ستيفن ديلادوس: لن أقوم بخدمة ما توقفت عن الإيمان به سواء كان هذا بيتى أو

وطني أو كنيستي. وسوف أحاول أن أعبر عن نفسي بكل ما أملكه من حرية في قالب من الحياة أو الفن، وكذلك بكل ما في وسعي من اكتمال، مستخدما في الدفاع عن نفسي السلاح الوحيد الذي أسمح لنفسي باستعماله: الصمت والمنفى والدهاء.

لقد ترك المنفى أثره في فن جيمس جويس دون ريب. ولا يقتصر هذا الأثر على نهاية روايته صورة الفنان في شبابه فحسب، فصراعه الباكر مع الرقابة أثر في روايته التي لم تكتمل ستيفن البطل، وخاصة في الفصلين السابع عشر والثامن عشر اللذين انتهى من كتابتهما في فبراير ١٩٠٥ . وكرد فعل ضد هذه الرقابة رأى جويس أن يضع في منفاه في كل من فرنسا وإيطاليا نظرية جمالية مستحدثة لم يسبق له استخدامها في مقاله الآنف الذكر الدراما والحياة الذي رفضت مجلة كلية دبلن نشره رغم أنها كلفته بكتابته.

ويسوق لنا جويس نظريته الجمالية في روايته التي لم تكتمل ستيفن البطل وهي نظرية تدحض الرأي النقدي القائل بأن غاية الفن هو التعليم والسمو والتسلية. ويطلق جويس على نظريته: تطبيقات الأكويني (نسبة إلى القديس توماس الأكويني) وهو يقول في هذا الشأن:

«إنني عاجز عن أن أجد مجرد أثر للمفهوم البيوريتاني المتزمت للهدف الجمالي في التعريف الذي أعطاه القديس توماس الأكويني للجمال. إن سمات الجمال مثلما يتوقعها الأكويني هي سمات ذات طبيعة مجردة ومشتركة لدرجة يستحيل على أعنف مشايعيه استخدام نظريته بهدف الهجوم على أي عمل فني يقوم بإنتاجه أي فنان... أيا كان هذا الفنان».

وتتضح لنا معالم هذه النظرية الجمالية الدفاعية التى صاغها ستيفن حين علم أن عميد الكلية (الملقب بالرقيب) لن يسمح له بقراءة بحثه. ويرجع السبب الرئيس فى رفض الرقيب لهذا البحث إلى أنه سوف يفضى بالضرورة إلى تحرير الشاعر من كافة القيود الأخلاقية. ولا ينكر ستيفن أن عميد الكلية قد يكون على حق فى تخوفه من أن تفضى هذه النظرية إلى الانحلال والتحرر من القيود الأخلاقية. ولكن ستيفن يدعم موقفه بالاستشهاد بتوماس الأكوينى قائلا: «لم أفعل سوى الذهاب بتعريف الأكوينى للجمال إلى نهايته المنطقية.. إن الأكوينى بكل تأكيد يقف فى صف الفنان القدير. وأنا لا أسمع منه أية إشارة إلى أن الفن يدعو إلى التعليم والسمو».

والجدير بالذكر فى الرواية التى لم يكملها جويس أن العميد يستسلم إلى منطق الطالب ستيفن فيسمح له بتقديم بحثه.

إن صدام جيمس جويس الباكر مع الرقيب منذ أول خطوة خطاها فى عالم التأليف والكتابة ترك أثره الواضح فى روايته «صورة الفنان فى شبابه» ورواية «ستيفن البطل» التى لم يكملها.

وشعر جويس بالإحباط من جراء رفض جرانت ريتشاردز نشر روايته أهل دبلن فى ٢٦ أكتوبر ١٩٠٦، الأمر الذى جعله يتوقف عن استكمال رواية «ستيفن البطل» ولا يطيق البقاء فى تريستا بإيطاليا التى كان يعيش فيها آنذاك فغادرها متوجها إلى روما. وعندما حاول أخوه ستانيسلوس حثه على إكمال رواية ستيفن البطل رد جويس عليه بقوله: لقد كتبت ما فيه الكفاية وقبل المضى فى كتابة المزيد يجب أن أعرف السبب

فيما حدث لى (يعنى الحظر الذى تعرضت له كتاباته)، فأنا كأديب لست شهيدا مثل يسوع المسيح.

قلنا إن الرقابة أدت به إلى النفى الاختيارى فى كل من فرنسا وإيطاليا كما أنها دفعته إلى استحداث أسلوب يتناسب مع حالة الغربة والنفى التى عاشها.. هذا الأسلوب يجمع بين الرمزية واستكناه عالمه الداخلى، الأمر الذى أدى بدوره إلى استكناه خبايا النفس واللاشعور. ومن نافلة القول أن نردد أن شهرة جويس الأدبية ارتبطت باستخدامه الرائد لما اصطلح النقاد على تسميته بتكنيك تيار الشعور وخاصة فى روايتيه «يوليسيس» و«فينجانزويك»، وهو نفس التكنيك التى استخدمته فيرجينيا وولف فيما بعد.

وفى عام ١٩١٢ ذهب مؤلفنا إلى دبلن كمحاولة أخيرة لإقناع الناشر مونسيل وشركاه الذى تعاقد معه على دفع رواية أهل دبلن، إلى المطبعة، وأثناء الزيارة أخبره جورج روبرتس وكيل الناشر بأنه تبين له أن أهداف الرواية تتعارض مع المصالح الأيرلندية؛ الأمر الذى لا يتمشى مع سياسة شركة النشر الأيرلندية. وذهبت محاولات جويس لإقناع دار النشر أدراج الرياح. وعرض وكيل الناشر أن يبيع له صفحات الرواية المجموعة حروفها، ولكن لسوء حظ مؤلفنا كانت هذه الحروف المجموعة بحوزة المطبعجى جورج فالكونر الذى أعلن أنه لن يسمح مطلقا بالسماح بنشر هذه المادة المعادية لوطنه أيرلندا. وفى ١١ سبتمبر عام ١٩١٢ قام هذا المطبعجى بتحطيم حروف الكتاب المجموعة التى ظل المؤلف يأمل فى الحصول عليها لمدة ثلاثة أعوام. ومنذ ذلك الحين قرر جويس مغادرة أرض الوطن وأقسم على عدم العودة إليه مرة أخرى.

كان من الممكن أن يعود جيمس جويس إلى بلده أيرلندا حتى بعد أن رفضت دار نشر مونسيل وشركاه إصدار روايته «أهل دبلن» ولكن مؤلفنا قرر أن يكون رحيله عن وطنه بلا عودة بعد أن قام المطبعجى بتدمير الحروف المجموعة لهذه الرواية. علما بأن مؤلفنا بدأ فى تحويل روايته «ستيفن البطل» إلى «صورة الفنان فى شبابه» حتى قبل وبعد حلول عام١٩١٢ .

ولكن الجدير بالذكر أن تغيرا جوهريا طرأ على أسلوب جويس فى الكتابة. فقد نبذ المذهب الطبيعى الذى كتب به «ستيفن البطل» وتبنى أسلوبا رمزيا معقدا فى كتابة «صورة الفنان فى شبابه» بكل ما يتضمنه من إشارات غامضة. أى أن مؤلفنا انتقل من الكتابة بأسلوب الدراما إلى الكتابة النفسية، ومن أسلوب المذهب الطبيعى إلى أسلوب المذهب الرمزى. وبسبب هذا التحول نرى جويس يغوص فى أغوار النفس وأعماق الذات ويستخدم أسلوب المونولوج الداخلى (أى مناجاة المرء لذاته) . وعن طريق استحداثه هذا الأسلوب الروائى الجديد فى صورة الفنان فى شبابه يصبح الفنان وكأنه مثل خالق الكون داخل أو وراء أو فوق العمل الفنى متجاوزا ما تسطره يداه على نحو غير منظور.. وبهذا دافع جويس عن العمل الأدبى ضد أية تهمة انحلال قد توجه إليه رافضا المبدأ المنادى بأن وظيفة الفن هى التربية والتعليم. ويجدر بنا أن نذكر فى هذا الصدد أن جون ييتس حث المحامى كوين على استخدام نظرية ستيفن فى الفن فى دفاعه عن رواية «يوليسيس» أمام محاكم نيويورك. وتذهب نظرية ستيفن فى العمل الفنى إلى ضرورة ابتعاده عن الإثارة الجنسية حتى لا يصبح أدبا فاضحا،

كذلك ابتعاده عن التنفير من هذه الرغبات حتى لا يصبح أدبا تربويا ينشر الفضيلة ومكارم الأخلاق. إن العمل الفنى وفقا لرؤية ستيفن ليس من شأنه إثارة الشهوات فيصبح أدبا مكشوفا أو ينفر منها فيصبح أدبا تعليميا. ويرى ستيفن أن النظرة الجمالية هى نظرة الفنان الذى يعيش فى المنفى بعيدا عن خضم السياسة، ومن شأن هذه النظرة أن تخلق حالة من السكون الكامل للعقل والروح معا. فإذا أثار هذا الأدب رغبات الجسد فليس هذا ذنب الأدب بل ذنب المتلقى له.

ويجدر بالذكر أن المحامى كوين لم يدافع عن «يوليسيس» أمام المحاكم من هذا المنطلق رغم أن جون ييتس نصحه بذلك. غير أن هذا الدفاع عن الرواية من هذا المنطلق يظهر بوضوح فى الكتاب الذى ألفه ستيوارت جلبرت عام ١٩٣٠ بعنوان: رواية «يوليسيس» للكاتب «جيمس جويس». وهو الكتاب الذى ترك أثره الجلى فى قرار القاضى وولسى التاريخى برفع الحظر عن هذه الرواية عام ١٩٣٣ .

لم تنته حاجة جويس لحماية نفسه من الرقيب عندما كتب آخر فصل من رواية صورة الفنان فى شبابه فى الشهور التالية لرحيله النهائى من أيرلندا عام ١٩١٢ . ولكن فرص جويس فى نشر أعماله أخذت تتحسن بشكل واضح ومتزايد بنهاية عام ١٩١٣، وهو العام الذى كتب فيه المنفيون واستمر فى كتابة صورة الفنان فى شبابه. ففى نوفمبر من هذا العام طلب جرانت ريتشاردز إعادة النظر فى مخطوطة رواية «أهل دبلن». وفى شهر ديسمبر أجرى الشاعر الكبير إزرا باوند اتصالا بجويس لأول مرة طالبا منه السماح له بنشر إحدى قصائده فى مختاراته من الشعر الرمزى، كما طلب البحث فى

أوراق مؤلفنا عن أية مادة أخرى صالحة للنشر. وكانت بداية عام ١٩١٤ فاتحة خير على جويس فقد أخبره باوند أنه ينوى نشر رواية صورة الفنان فى شبابه فى المجلة التى يصدرها بعنوان الايجويست، فضلا عن إرسال ثلاث حكايات من رواية أهل دبلن إلى نيويورك لنشرها فى المجلة التى يصدرها هـ.ل.منكين بعنوان الجماعة الذكية. ثم حدث تطور درامى فى موقف جرانت ريتشاردز فى نهاية شهر يناير عام ١٩١٤ فقد وافق على نشر أهل دبلن التى سبق أن رفضها عام ١٩٠٦ . وبعد مضى ثلاثة أعوام على عيد ميلاد جويس الموافق ٢ فبراير بدأت مجلة الايجويست فى نشر صورة الفنان فى شبابه كمسلسل. وبعد أن ظل جويس يعانى الحظر لمدة تسعة أعوام بدأ يتنسم نسيم الحرية بعيدا عن مقص الرقابة وقيودها.

فى ذلك الوقت من شهر مارس ١٩١٤ شرع جيمس جويس فى تأليف روايته «يوليسيس». ويذهب إلمان إلى تمكن مؤلفنا من نشر روايتى «أهل دبلن» و«صورة الفنان فى شبابه»، كما أن تعضيد إزرا باوند المالى والمعنوى له جعله يغادر منفاه فى تريستا الإيطالية إلى منفاه فى زيوريخ السويسرية مما أدى إلى تخفيف حدة ثورته وتمرده عند كتابة روايته «يوليسيس» بالمقارنة بشدة ثورته وجموح تمرده فى رواية «صورة الفنان فى شبابه». وقد انعكس هذا التغير على الفرق بين رسمه لشخصية ستيفن ديلادوس الفنان الثائر فى «صورة الفنان فى شبابه» مقارنة بشخصية ليوبولد بلوم... ذلك الزوج الراضى عن نفسه والبطل الحقيقى فى رواية «يوليسيس». غير أن بعض النقاد يرون أن مثل هذا الرأى يتجاهل الفترة القصيرة فى عام ١٩١٤/ ١٩١٥ – وهى فترة لم تزد مدتها على أحد عشر

شهرا – التى ارتاح فيها مؤلفنا من عنت الرقابة وتعسفها. وفى وقت باكر لا يتجاوز شهر يناير ١٩١٥ – وهى الفترة التى لم يكتب فيها جويس سوى شذرات من روايته «يوليسيس» – شرع المطبعجية فى الاعتراض وقمع بعض فقرات من روايته «صورة الفنان فى شبابه» للحيلولة دون نشرها فى مجلة الايجويست وعلم مؤلفنا فى شهر مايو أن جرانت ريتشاردز الذى قبل نشر روايته «أهل دبلن» فى يونية ١٩١٤ يرفض نشر روايته الأخرى «صورة الفنان فى شبابه». وعلل هذا الرجل رفضه نشر هذه الرواية بظروف الحرب والكساد العام. غير أن آن كاترين ماكولاف تذكر لنا أن جرانت ريتشاردز أكد أن السبب الحقيقى وراء امتناعه عن نشر صورة الفنان فى شبابه يرجع إلى ما فى محتواها من بذاءات؛ ويتضح هذا من قول ريتشاردز: أخشى نشر الكتاب، فهو يخاطب جمهورا من القراء الأذكياء. وهناك ما يدل على وجود مثل هؤلاء القراء الأذكياء. ولكن من الصعوبة بمكان الوصول إليهم. ومن الصعب الآن بوجه خاص الوصول إليهم. وفى نهاية مايو ١٩١٥ قبل أن يكمل جيمس جويس الحكاية الثانية فى رواية «يوليسيس» كان مؤلفنا محقا فى اقتناعه أن مشاكله مع الرقابة لا تزال قائمة. وفى يولية ١٩١٥ بعد رحيل مؤلفنا من تريستا متوجها إلى زيوريخ وبعد انتهائه من تأليف الحكاية الثانية من «يوليسيس» تأكد جويس أن مشاكله مع الرقيب لم تنته واتضح له فى ذلك الوقت أن المطبعجية قاموا من تلقاء أنفسهم بحذف فقرات من مسلسل صورة الفنان فى شبابه قبل طباعته. وفى نفس الشهر رفض الناشر مارتن سكر نشر صورة الفنان فى شبابه بين دفتى كتاب بسبب إصرار جيمس بينكر وكيل أعماله على

ضرورة طبع الكتاب دون إجراء أى حذف منه. وتأكد مؤلفنا أن الناشرين الآخرين سوف يرفضون نشر روايته وخاصة بعد أن صادرت الرقابة رواية قوس قزح التى نشرها د.هـ. لورانس فى أوائل نوفمبر من العام السالف الذكر. وبمعنى آخر فإن الحرية النسبية التى تمتع بها مؤلفنا فى عام ١٩١٤/ ١٩١٥ كانت ضئيلة ومحدودة للغاية.

ويعارض بعض النقاد ما يذهب إليه إلمان من أن رواية «يوليسيس» تقل فى تمردها وثوريتها عن صورة الفنان فى شبابه باعتبار أن فكرة رواية «يوليسيس» خطرت له قبل عام ١٩١٤ بفترة طويلة حيث إن فكرتها خطرت له فى أعقاب رفض جرانت ريتشاردز نشر رواية أهل دبلن فى عام ١٩٠٦ . فقد ذكر جويس لستانيسلوس: اختمرت فى عقلى قصة جديدة تدور حول سكان دبلن. وهى تروى قصة رجل من دبلن يدعى المستر هنتر أشيع عن زوجته أنها تخونه باستمرار. وبحلول يوم ١٣ نوفمبر (أى بعد مرور نحو أسبوعين على تأكيد جرانت ريتشاردز بشكل نهائى رفضه نشر رواية أهل دبلن) كان جويس قد توصل إلى عنوان «يوليسيس» لروايته. يقول جورجيو ملشيورى إنه كان من الطبيعى أن يتذكر مؤلفنا المستر هنتر إبان فترة نفيه الاختيارى فى روما لأنه تصور نفسه متمثلة فى هذه الشخصية التافهة كمهاجر بلا أصدقاء فى مدينة يحتفى طرازها المعمارى بأنصار الدين المسيحى الذى نبذه. ولا ريب أن فرض الرقابة على كتابات جويس هى التى عمقت فيه الإحساس بالغربة.

ويتناول جيمس جويس الصعوبات الرقابية التى واجهته فى نشر أعماله السابقة على رواية «يوليسيس» وفى نشر رواية «يوليسيس» فيقول شاكيا:

إن قصة مؤلفاتى غريبة للغاية. لقد كافحت عشرة أعوام حتى تمكنت من نشر «أهل دبلن» وعن طريق الغش والتدليس تم إحراق الطبعة الأولى بأكملها من هذه الرواية. وهى تتكون من ألف نسخة. يقول البعض إن الحرق كان بتحريض القساوسة، فى حين يرى آخرون أن المندوب السامى أو رفيقته الكونتيسة أبردين – هو المسئول عن الحرق. هذا السر لا يزال خافيا.. أما رواية «صورة الفنان فى شبابه» فقد رفض نشرها تقريبا جميع الناشرين فى لندن. وكان من المفترض أن تنشر روايتى الجديدة («يوليسيس») فى مجلة الايجويست الصادرة فى لندن. ولكن نفس الحكاية القديمة تكررت. فقد رفض المطبعجية طباعتها أيضا، فظهرت فى أجزاء مفككة وغير مترابطة فى مجلة (الريفيو الصغيرة) الصادرة فى نيويورك. وفى أحيان كثيرة فرضت مصلحة البريد التابعة للحكومة الأمريكية الحظر عليها. وهى الآن تتخذ ضدها الإجراءات القانونية.

وفى أوائل يناير ١٩٢٠ عندما كان مؤلفنا يكتب حكاية «نوسيكا» شكا إلى فرانك بودجن من أن الجزء الأول منها الذى يحمل عنوان «سيكلوبس» صدر بعد استبعاد جميع الإشارات إلى انتصاب القضيب.

على أية حال لم يأل جيمس جويس جهدا للترويج لكتاباته والذود عنها ووجد ضالته المنشودة فى كاتب فرنسى اسمه فاليرى لاربور تعرف عليه عن طريق سيلفيا بيتش وجماعة شكسبير وفرقته. كان هذا الكاتب معجبا برواية «يوليسيس» إلى حد الهوس، الأمر الذى دفعه إلى نشر مقال فى صحيفة المجلة الفرنسية الجديدة عن محاضرة يزمع إلقاءها حول جويس وروايته «يوليسيس» على جماعة أصدقاء الكتاب فى مكتبة أدريان

مونييه. وأبدى مؤلفنا اهتماما شديدا بهذه المحاضرة واشترك فى إعداد الاستعدادات لها. وبلغ اهتمام جويس بهذه المحاضرة حدا جعله يختار للمحاضر فاليرى لاربور فقرات الرواية التى يستشهد بها فى محاضرته. علما بأن جويس زود فاليرى لاربور بخطته التى أسس عليها بناء «يوليسيس» الروائى. ومن ناحيته علق جويس أهمية كبيرة على هذه الخطة لدرجة أنه كتب إلى لاربور يطلب منه إعادة هذه الخطة إليه بعد بضعة أيام من إرسالها له لأنه يريد أن يضيف إليها ويتوسع فيها ثم يعيدها إليه ويتناقش معه بشأنها. ألقى لاربود محاضرته فى شهر ديسمبر ١٩٢١ ثم نشرها بعنوان جيمس جويس فى المجلة الفرنسية الحديثة. وذهب لاربود إلى أن جويس مجدد عظيم تشبه شهرته فى عالم الأدب شهرة كل من أينشتين وفرويد فى العلم. وأضاف أن البعض يعتبرونه أعظم كاتب بريطانى فى عصره. وهو صنو لسويفت وستيرن وفيلدنج. وقال إن جويس فى نظر جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة لا يعدو أن يكون رجلا أيرلنديا يكتب أعمالا إباحية مثل «يوليسيس». ويوضح لاربود أوجه الشبه كما يراها بين روايتيه «يوليسيس» وأهل دبلن فيقول إن الروايتين تتناولان أوجه الحياة المختلفة فى دبلن عاصمة أيرلندا ولكن مع فارق شديد الأهمية، ففى حين تخلو رواية (أهل دبلن) من الوحدة، فهى تحتوى على مجموعة من الحكايات المستقلة والمنفصلة، نرى أن هناك رابطا يربط حكايات «يوليسيس» المختلفة وأنها فى نهاية الأمر تشكل كلاً واحدا. ويبدو أن لاربود أفلح فى الدفاع عن رواية «يوليسيس» بشكل مقنع أمام الحاضرين والغرباء أكثر مما فعله كوين فى ساحات القضاء عام ١٩٢٠/ ١٩٢١ .

والمرجح أن دافع جيمس جويس إلى الحديث عن خطته فى بناء رواية «يوليسيس» يرجع إلى رغبته فى الدفاع عنها ضد الرقابة، فهو يريد أن يثبت للرقيب أن هذه الرواية عمل أدبى جاد وأن هناك خطة موحدة وراء الشتات الظاهرى لبنائها، أى أنه يريد التدليل على جدية عمله الأدبى وخلوه من البذاءة وإثارة الشهوات.

ولعلنا نذكر أن أول إشارة إلى ما تتضمنه رواية «يوليسيس» من تخطيط وردت فى الخطاب الذى أرسله جويس إلى المحامى كوين قبيل دفاعه عنها أمام القضاء الأمريكى.

لم يغب عن بال جيمس جويس قط أن أربع حلقات من مسلسل «يوليسيس» المنشورة فى مجلة الريفيو الصغيرة تعرضت للحظر وخاصة لأن المحامى كوين أرسل إليه خطابا من الولايات المتحدة ينصحه فيه بالاقتصار على نشر الرواية فى طبعة خاصة، الأمر الذى استدل منه المؤلف على أنه يستحيل عليه نشر طبعة عامة لجمهور القراء. ونحن نرى جويس بعد كتابته خطة هذه الرواية يعرج إلى الحديث عن حظر «يوليسيس» بقوله:

«أمضيت سبعة أعوام فى تأليف هذا الكتاب.. فتبًا له، واكتشفت أنه لا يوجد مطبعجى إنجليزى يرغب فى طباعة كلمة واحدة منه. وفى أمريكا تعرضت المجلة التى تنشرها فى حلقات للحظر أربع مرات. وهناك الآن ـ كما سمعت ـ حركة عظيمة تنشط على قدم وساق يقوم بها المتزمتون البيوريتان والمستعمرون الإنجليز والجمهوريون الأيرلنديون والكاثوليك للحيلولة دون نشر الرواية فيا له من تحالف عجيب. لهذا ينبغى عليهم إعطائى جائزة نوبل للسلام».

كان لدى جويس اقتناع راسخ بوجود مؤامرة مدبرة ضد نشر روايته «يوليسيس» وزاد من هذا الاقتناع رسوخا قيام الرقابة فى أمريكا بحظر حكاية نوسيكا. والذى لا شك فيه على أية حال أن الشكل الذى اتبعه جويس فى استكمال رواية «يوليسيس» تأثر تأثرا واضحا بالحظر الذى تعرضت له الحلقات الأولى من الرواية التى تولت مجلة الريفيو الصغيرة نشرها. ولم يقتصر هذا الأثر على مجرد استكمالها بل امتد إلى طريقة مراجعتها وإعادة كتابتها. ويفسر التنقيح الذى أجراه المؤلف على روايته نقاط الخلاف بين النص الروائى المنشور فى باريس والنص الروائى كما هو منشور على حلقات فى الريفيو الصغيرة. وقد أدخل المؤلف تعديلاته على الرواية بهدف الدفاع عنها ضد تهمة البذاءة خلال الفترة الواقعة بين شهرى سبتمبر ١٩٢٠ وفبراير ١٩٢٢ . وأسهمت هذه التعديلات فى تأكيد وحدة الرواية كعمل فنى. ونفس الشىء ينطبق على التنقيح الكبير الذى أجراه على «يوليسيس» فى صيف عام ١٩٢١ . وهو تنقيح زاد فى تماسك الرواية ووحدتها. وقد تم هذا التنقيح بناء على التخطيط أو التنظيم الذى أعده جويس بهدف تبرئة روايته من البذاءة. وأدت هذه التنقيحات التى أجراها المؤلف على «يوليسيس» إلى تضخم بعض أجزائها بنسبة الثلث على أقل تقدير. ولكن عملية التنقيح هذه توقفت لمدة خمسة أسابيع عجز فيها المؤلف عن العمل بسبب ضعف إبصاره نتيجة مرض أصاب عينيه. وشفى مؤلفنا من هذا المرض فى أغسطس ١٩٢١ فتمكن من نشر روايته فى ٢ فبراير ١٩٢٢ . وكما أسلفنا كان هدف المؤلف من تنقيحاته حماية نفسه وكتابه من الرقيب قدر المستطاع.

ولعل التعديلات والتنقيحات التى أدخلها المؤلف على روايته هى التى سهلت على القضاء الأمريكى السماح بنشرها عام ١٩٣٣، كما أنها مكنت المحامى موريس إرنست من الدفاع عن الرواية على نحو رائع. وكما أسلفنا زادت هذه التنقيحات من تماسك الرواية ووحدتها فلم تعد مجرد شذرات متناثرة ومفككة؛ الأمر الذى زاد بدوره من فرص الدفاع عن رواية «يوليسيس» ككل وليس كأجزاء يربطها رباط واه ومفكك وضعيف. فضلا عن أن زيادة تماسك الرواية ووحدتها جعلها أكثر استساغة للأفهام وحولها إلى عمل فنى أكثر اتساقا وانسجاما وتكاملا. ومن شأن هذا كله أن يساعد على الدفاع عن الرواية ضد تهمة البذاءة. والجدير بالذكر أن مثل هذه التنقيحات من شأنها أن تصرف انتباه القارئ عن الأجزاء المثيرة للخلاف وتجعله يركز على الرواية ككل. ويمثل هذا الفرق بين نسخة الرواية كما سطرها المؤلف عام ١٩١٨ والنسخة التى أتم تنقيحها عام ١٩٢٢ . وهذا ما أشار إليه الناقد ليتز عند تناوله للتغييرات التى أجراها جويس مؤخرا على حكاية ايولوس. وثمة نقطة أخرى بشأن التنقيحات التى أجراها جويس على رواية «يوليسيس» لحمايتها من حظر الرقيب. هذه النقطة تتمثل فى وحدتها الشكلية المعقدة ونسيجها العنكبوتى الشائك من الرموز.

وبتنقيحاته التى أجراها جويس مؤخرا على روايته يؤكد لنا هذا المؤلف أن لغة الفن ليست اللغة المستخدمة فى الأسواق، بل هى لغة تختلف تمام الاختلاف وتحتاج إلى التوفر على دراستها. فضلا عن أن فهمها قمين بأن يوضح لنا أن أحداث «يوليسيس» وأفعال شخصياتها ليست

لها أية أهمية فى ذاتها. فالمهم أن تفهم الرواية ككيان مستقل بذاته؛ له لغته المعقدة الخاصة به والتى طورها فى روايته التالية فينجانز ويك، الأمر الذى جعلها بمأمن من تدخل الرقيب أكثر من رواية «يوليسيس».

استمر حظر رواية «يوليسيس» للعديد من السنوات بتهمة البذاءة بعد نشر طبعتها الصادرة فى باريس. وبنهاية عام ١٩٢٢ ظلت السلطات الأمريكية تصادر بانتظام الطبعة الباريسية للرواية رغم التمويه الذى لجأت إليه سيلفيا بيتش فقد غلفت نسخ الرواية بأغلفة مضللة تحمل عناوين أعمال شكسبير أو حكايات فولكلورية مرحة. ولم تكن النسخة التى نشرها هارييت شو ويفر فى مطبعة الايجويست والمنشورة أيضا فى باريس فى أكتوبر ١٩٢٢ تحاشيا للدخول فى مشاكل مع المطبعجية الإنجليز أوفر حظا. ففى عام ١٩٢٢ قام وكيل الآنسة ويفر فى باريس - ويدعى جون رودكر - بإبلاغها أن مصلحة الجمارك الأمريكية قامت بمصادرة أربعمائة نسخة مرسلة إلى مشتركين أمريكان. وهو نفس المصير الذى لقيته خمسمائة نسخة أخرى من الرواية طبعتها مطابع الإيجويست فى يناير ١٩٢٣ لتوزيعها على المشتركين الأمريكان كتعويض لهم عن مصادرة مصلحة الجمارك الأمريكية لنسخهم. ولكن هذه المصادرة هذه المرة جاءت من مصلحة الجمارك الإنجليزية التى صادرت ٤٩٩ نسخة من «يوليسيس» فى ميناء فولكستون.

ونفس الشيء حدث فى كندا وإيرلندا حيث صادر موظفو الجمارك رواية «يوليسيس» وأحرقوها فى بداية عام ١٩٢٢ . وبحلول عام ١٩٢٣ أصبحت رواية «يوليسيس» محظورة فى كل البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية تقريبا.

وبلغت إدانة السلطات الأمريكية لرواية «يوليسيس» ذروتها عندما ألحت مصلحة الجمارك على ضرورة مقاضاة أى شخص فى أمريكا يستخدم البريد للحصول على أى كتاب يستخدم التكنيك الروائى المعروف بتيار الشعور الذى يستخدمه بنو جلدة جويس فى دبلن. وفى هذا الجو القامع للحريات فشلت كل المحاولات لإصدار طبعة نظيفة من الرواية. وكانت أول محاولة من هذا القبيل فى الفترة الواقعة من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٢٧, وذلك عندما حاول ناشر الأدب المكشوف صامويل روث (المرفوع ضده العديد من القضايا بسبب إباحية مطبوعاته) طبع رواية «يوليسيس» على حلقات فى مجلة تصدر تحت عنوان شهرية عالمين. فعل صامويل روث هذا دون الحصول من المؤلف على أى تصريح بالنشر أو باستبعاد بعض الفقرات الأمر الذى دفع جويس إلى كتابة خطاب احتجاج تمهيدا لعرض الأمر على القضاء. وللدفاع عن نفسه ضد هجوم المؤلف عليه كتب صامويل روث ما يلى:

«يقولون إنى ألحقت الضرر به بنشر كتابه دون إذن منه ودون الإبقاء على تلك الأجزاء التى تسببت فى حرق روايته «يوليسيس» على جانبى المحيط الأطلنطى. فلماذا يعبر العالم كله عن سخطه عندما يرفض ناشر أمريكى السماح لكاتب أيرلندى بتلطيخ صفحات مطبوعاته كما لو كان يتبرز فى مرحاض بيته الخاص».

والجدير بالذكر أن السلطات الحكومية فى نيويورك عبرت عن استيائها من بذاءة «يوليسيس» حتى بعد قيام صامويل روث بتنظيفها من قاذوراتها.

وفى العاشر من مارس ١٩٢٧ نشرت صحيفة النيويورك تايمز مانشيتا رئيسا يفيد بتقديم روث للمحاكمة لنشر رواية «يوليسيس» فى شهرية «عالمين» فرفعت ضده لجنة الكتب النظيفة التابعة لفيدرالية اليهود المجربين فى أمريكا دعوى قضائية لأن المجلات التى يتولى روث نشرها وعلى رأسها شهرية عالمين تفسد عقول قرائها. وتمت محاكمة روث أمام محكمة شرطة سوق جيفرسون - وهى نفس المحكمة التى سبق أن حاكمت كلا من المحررتين أندرسون وهيب منذ ثمانية أعوام؛ ولكن لا توجد وثائق تسجل نتائج محاكمة هذا الناشر.

ثم حاول روث للمرة الثانية فى عام ١٩٢٩ نشر رواية «يوليسيس» بين دفتى كتاب على أنه الطبعة التاسعة المعترف بها من طبعة باريس. ولكن هذه المحاولة منيت أيضا بالفشل. وطبقا لما يقول سلوكوم وكاهون قام البوليس الأمريكى عام ١٩٢٩ بشن غارة على دار الجولدن هاين أدت إلى مصادرة عدد كبير من نسخ رواية «يوليسيس». وتبين المحاولة الثانية التى بذلها روث لنشر الرواية أنه لم يكن بالإمكان فى عقد العشرينات استيراد هذه الرواية من الخارج بهدف توزيعها حيث إن هذا الفعل كان مؤثما ويعرض مرتكبه للملاحقة الجنائية.

ولم تكن إنجلترا آنذاك أكثر سماحة من أمريكا كما نستدل على ذلك من تجربة الناقد البريطانى الأكاديمى ف.ر.ليفز عام ١٩٢٦ . فقد تعرض للمتاعب والمشاكل عندما طلب من مكتبة جالوى وبورتر اقتناء نسخة من الرواية لأسباب تعليمية وتوضيحية فى مادة الرواية التى اضطلع بتدريسها فى جامعة كامبريدج تحت عنوان مشكلات نقدية حديثة. ونتيجة لهذا

ساورت الشكوك رئيس الكونستابلية فى شرطة كامبريدج فى وجود مؤامرة شريرة للخديعة والإيقاع بأصحاب المكتبة، فبدأ يجرى تحريات عن هوية الدكتور ف.ر.ليفز الأستاذ بكلية إيمانويل بجامعة كامبريدج. ولم يعلم ليفز بتحريات الشرطة عنه إلا بعد أن استدعاه نائب رئيس الجامعة إلى مكتبه. ومن خلال هذا الاجتماع أطلع نائب رئيس الجامعة الدكتور ليفز على ورقة منسوخة بالآلة الكاتبة جاء فيها أن رواية «يوليسيس» فى منتهى القذارة كما طالبت هذه الورقة بضرورة التعامل مع الدكتور ليفز بشكل حازم ومناسب.. ودفاعا عن موقفه أوضح ليفز أنه ليس فى نيته إدراج رواية «يوليسيس» فى المنهج الدراسى، ولكنه أضاف أنه ليس هناك ما يمنع من إطلاع الدارسين عليها. ومن ناحيته قام نائب رئيس جامعة كامبردج بإبلاغ النيابة بعدم نية ليفز إدراج الرواية كجزء من المنهج ولكنه أخفى قول ليفز إنه لا يرى مانعا من إطلاع الدارسين عليها. واقتنع النائب العام برد نائب رئيس جامعة كامبردج عليه فأوقف إجراءات التحقيق مع ليفز. على أية حال لم تسمح السلطات البريطانية باستيراد نسخة من «يوليسيس» من الخارج. غير أن ليفز شكا من أن الحادثة أساءت إلى علاقته بالمسئولين بالجامعة.

وفى كل من إنجلترا وأمريكا لم تسمح السلطات الحكومية حتى باكورة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين بأى خرق لحظر اقتناء الأفراد للرواية. ولكن مصلحة الجمارك فى حالات استثنائية سمحت لبعض الأفراد باقتنائها بناء على طلب – تدعمه المستندات – أن صاحب الطلب يرغب فى اقتنائها لأغراض علمية. فعلى سبيل المثال تقدم البروفيسور

الطبيب سمايلى بلانتون أستاذ الطفولة فى فاسا بطلب لاستيراد روايتى «يوليسيس» وعشيق الليدى تشاترلى نظرا لاهتمامه بما تنطوى عليه الرواية الأولى من كشف عن الأمراض والانحرافات المرضية، وتصوير الرواية الثانية للحالات العقلية المرضية. ويبدو أن أول مواطن بريطانى حصل بطريقة مشروعة على نسخة من «يوليسيس» فى ديسمبر ١٩٣٠ هو طبيب أراد الانتفاع بها فى إجراء دراسة نفسية خاصة. ولكن تداولها بين القراء الأمريكان ظل محظورا حتى عام ١٩٣٤ كما ظل محظورا بين القراء الإنجليز حتى عام ١٩٣٦ . ولكن يجدر بالذكر وجود بعض الاستثناءات حيث إن الترجمة الفرنسية للرواية أصبحت تباع علنا فى الأسواق بحلول عام ١٩٣١، أى أنها سبقت النسخة الإنجليزية بنحو ثلاثة أعوام فى الظهور فى الأسواق.

ومن المعلوم أن إقدام ناشر الأدب المكشوف صامويل روث على نشر رواية «يوليسيس» كان أحد العوامل القوية التى أقنعت السلطات الأمريكية ببذاءتها. ونظرا لأن سيلفيا بيتش وهارييت شو توقعا الأضرار الناجمة عن إقدام صامويل روث على نشرها فقد صمما على التصدى له (لأن فى نشره للرواية تأكيدا لبذاءتها، وساءهما كثيرا أن تصنف الرواية كأدب مكشوف مثل فانى هيل لكليلاند ورواية اغتصاب على القضبان.

وتشير سجلات مصلحة البريد الأمريكية إلى أن السلطات فى مينا بوليس حظرت فى عام ١٩٢٨ تداول رواية «يوليسيس» ضمن مجموعة من الكتب تضم أغرب اشتهاء والعذرية المكسوة وأفروديت التى ألفها بيير لويس. وقد ادعى مستوردها واسمه أ.هاى مولن أن جميع هذه الكتب

الفاضحة تتمتع بميزات أدبية وهو ما رفضته مصلحة البريد الأمريكية جملة وتفصيلا. والجدير بالذكر أن بذاءة «يوليسيس» ارتبطت ببذاءة رواية أخرى هى عشيق الليدى تشاترلى حيث إن السلطات اعتبرت الرواية الأخرى الأكثر بذاءة. ورغم جهود سيلفيا بيتش الساعية إلى فصل هاتين الروايتين عن بعضهما البعض فقد ارتبطت كلتا الروايتين بالفحش ارتباطا وثيقا حتى يومنا الراهن. وقد مهد النقاد للسماح قانونا فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية برفع الحظر عن رواية «يوليسيس» وتداولها بنشرهم سبع دراسات مستفيضة تشمل الكتاب الذى ألفه هربرت جورمان عام ١٩٢٤ تحت عنوان جيمس جويس: الأربعون عاما الأولى من حياته (١٩٢٤)، ومفتاح رواية «يوليسيس» لجيمس جويس الذى نشره بول جوردان سميث عام ١٩٢٧، وكتاب «يوليسيس» لجيمس جويس الذى نشره ستيوارت جلبرت عام ١٩٣٠, فضلا عن المقالات النقدية الكثيرة التى عالجت هذه الرواية مثل مقال ت.س.إليوت رواية «يوليسيس»: النظام والأسطورة و«جيمس جويس» لإدموند ويلسون.

وقد اعتمد الدارسون على هذه الدراسات النقدية كبديل للرواية فى غياب النص المحظور. ولا شك أن هذه الدراسات النقدية تناولت الحظر المفروض على الرواية. ولهذا نرى أصحاب هذه الدراسات يتخذون مواقف مدافعة عن جيمس جويس وروايته بشتى الطرق، فمنهم من هاجم الرقابة ومنهم من دافع عن الرواية بحكمة وحصافة. ومنهم من أقر - مثل الكاتب الفرنسى لاربود ببذاءة الرواية ولكنه أنكر أنها مفسدة للأخلاق. وتحاشى نقاد آخرون الخوض فى بذاءة الرواية وركزوا نقدهم على المقارنة

بين «يوليسيس» كما عالجه هوميروس و«يوليسيس» كما يعالجه جيمس جويس، فضلا عن أن اهتمام بعض النقاد انصب على شكلها الروائى المعقد وأسلوبلها الخ.. ومنهم من تطرق إلى موضوع الرقابة كما فعل الشاعر إزرا باوند فى مقالاته.

وبطبيعة الحال لم تظهر إشارة إلى كل هذه الدراسات خلال الإجراءات القضائية والقانونية التى اتخذت ضد الرواية أثناء محاكمتها فى نيويورك، ولكن بعضها على أقل تقدير ورد فى ثنايا الدفاع عنها.

فى عام ١٩٣١ سعى جويس ومدير أعماله مرة أخرى إلى العثور على ناشر لرواية «يوليسيس» فى الولايات المتحدة. وفى شهر أغسطس من هذا العام قامت سيلفيا بيتش شقيقة السيدة بيتش دنيس بإبلاغ الكسندر ليندى العامل فى شركة وولف وجرينوم وإرنست للمحاماة باهتمامها الشديد بنشر رواية «يوليسيس» بطريقة مشروعة. وهو ما راق فى عينى ليندى نفسه فتحمس للفكرة وكتب يقول: لا زلت أشعر بقوة أن هذه القضية ستكون أهم قضية بذاءة فى تاريخ القانون والأدب. وإنى الآن على أتم استعداد لأن أفعل أى شىء فى العالم كى تبدأ هذه القضية. وكان هذا الموقف نفس موقف إرنست أحد أصحاب شركة المحاماة الذى قدم كل ما بوسعه من خدمات إلى الناشر الأمريكى بن هيديتش الذى قام بنشر روايتى أهل دبلن وصورة الفنان فى شبابه وتطلع إلى نشر رواية «يوليسيس» أيضا. غير أن هذا الناشر فشل فى الوصول إلى اتفاق مع سيلفيا بيتش التى كانت تملك حقوق نشر الرواية فى الولايات المتحدة، الأمر الذى دفعه إلى سحب عرضه بنشر «يوليسيس» عام ١٩٣١ . وأتاح انسحابه

الفرصة أمام دار نشر راندوم هاوس لنشرها. وفى نفس الوقت تقريبا (ديسمبر ١٩٣١) تلقى سيرف (وكيل أعمال جويس) مكالمة من روبرت د. كاستور أحد العاملين فى البورصة وأحد أقرباء جويس فى أمريكا بأنه يزمع السفر قريبا إلى أوربا فسأله إذا كان سيرف يريد منه إخبار جويس أن دار نشر راندوم هاوس على استعداد لنشر رواية «يوليسيس». وقفز سيرف من شدة فرحته بهذا الخبر. ومن ناحيته قابل سيرف محاميا ليناقش معه شروط العقد المقدم إلى جويس ويخطط للمعركة القانونية التى يتعين على الرواية خوضها فى حالة قبول جويس هذا العرض. آمن سيرف بأن المحامى إرنست خير محام يدافع عن «يوليسيس» فى طول الولايات المتحدة وعرضها. وكان اعتقاده فى محله نظرا لأن إرنست اشترك فى تأليف كتاب بعنوان «إلى الاتقياء» (١٩٢٨) يتضمن هجوما على الرقابة على الأدب. فضلا عن نجاحه فى الدفاع عن رواية بئر الوحشة التى ألفتها رادكليف هول وتناولت فيه ممارسة السحاق. وأيضا كسب المحامى إرنست فى عام ١٩٣٠ قضية نشر وتوزيع النشرة التى ألفتها مارى وار دينيت عن التربية الجنسية تحت عنوان «الجانب الجنسى من الحياة»: شرح موجه للشباب.. وكذلك نجح فى الحصول للدكتورة مارى ستوبس على تصريح بتداول كتابها «الحياة الزوجية»، وكتاب آرثر سكينزلر «رجوع كازانوفا إلى داره». ولا شك أن هذه الانتصارات جعلت المحامى إرنست أفضل من يدافع عن رواية «يوليسيس» وكان من دواعى تشجيع سيرف أن المحامى إرنست قبل الدفاع عن جويس نظير مقدم أتعاب متواضع بواقع ٥ ٪ من عائد مبيعات الرواية.

لم يكن سيرف بحاجة إلى أى شىء لبدء القضية سوى توقيع جويس على عقد النشر الذى حمله كاستور معه إلى أوربا، والذى بمقتضاه أعطى جويس ألف دولار من نسبة الـ١٥ ٪ المحددة للمؤلف مقابل حقوق ملكيته الفكرية بحيث يحتفظ المؤلف بهذا المبلغ سواء نجح سيرف أو فشل فى نشر «يوليسيس»، وقام كاستور بتسليم العقد لجويس فى شهر فبراير (١٩٣١). وفى الشهر التالى (مارس) أعلن جويس موافقته على عرض دار النشر راندوم هاوس.

وبمجرد حصول الناشر على نسخة العقد التى وقعها جويس نشبت المعركة على أشدها. ونصح المحامى إرنست بأن يرسل إليه سيرف نسخة من رواية «يوليسيس» عن طريق البحر من فرنسا إلى ميناء نيويورك حتى يقوم رجال الجمارك الأمريكية بمصادرتها. وبذلك تتمكن دار نشر راندوم هاوس من اتخاذ الإجراءات القانونية ضد المصادرة. وكان هدف الناشر من وراء هذه الخطة أن يقلل قدر المستطاع ما يتكبده سيرف من مخاطر مالية. فضلا عن أنه من شأن هذا الإجراء أن يتمكن المحامى إرنست من سماع شهادات العارفين بطبيعة الفنون والآداب كما هو واضح من التعليمات التى أرسلها سيرف إلى بول ليون صديق جويس ومعاونه فى باريس. وكتب إليه سيرف التعليمات التالية: من فضلك اشتر نسخة من آخر طبعة من رواية «يوليسيس». وإذا كانت هناك أية نشرة مطبوعة باللغة الفرنسية تحتوى على آراء رجال أدب أو نقاد بارزين فالصق نسخة من هذه النشرة فى مقدمة الكتاب. ومن المهم التأكد من إلصاق هذه النشره فى الكتاب حيث إن إرسالها منفصلة لن يساعدنا فى استخدامها كدليل

حين تبدأ المحاكمة. ولكن في حالة إلصاق آراء هؤلاء الناس المحترمين بالكتاب تصبح هذه الآراء من الناحية القانونية جزءاً من الكتاب ويمكن الرجوع إليها كدليل. وسواء كان هذا اللصق مفيدا من الناحية القانونية أو لا، فإنه يشير إلى أن الدفاع عن الرواية سوف يستند إلى آراء نقاد الأدب باعتبارها المعيار الصحيح للحكم على الرواية.

وفي الحال استجاب ليون إلى طلب سيرف فأرسل نسخة من الرواية على ظهر الباخرة س.س.برين المتجهة إلى نيويورك. وألصق الراسل التالي بين دفتي الكتاب:

(١) الاحتجاج الذي وقعه ١٦٧ كاتبا ضد قيام ناشر الأدب المكشوف روث بسرقة الرواية ونشرها بطريقة غير مشروعة بالإضافة إلى الحكم الذي أصدرته المحاكم الأمريكية ضد روث.

(٢) نشرة تتناول ترجمة رواية «يوليسيس» إلى اللغة الألمانية ونشرة أخرى تحتوي على الآراء بشأن الترجمة الفرنسية.

(٣) مقتطفات صحفية من الطبعة الإنجليزية من رواية «يوليسيس» الصادرة في باريس.

(٤) ثلاثة مقالات نقدية فيما يلي بيان بها:

أ- مقال بعنوان «يوليسيس» بقلم مارسيل بريون منشور في المجلة الأسبوعية عدد ٤ الصادر في ٢٠ أبريل ١٩٢٩ (ص٣٦٥-٣٦٧).

ب- مقال بقلم لويس كازاميان بعنوان أعمال جيمس جويس المنشور في المجلة الأنجلو أمريكية بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٢٤ (ص٩٧-١١٣).

جـ- مقال بقلم ستيوارت جلبرت بعنوان «يوليسيس» الأيرلندية: حكاية الجحيم الأسطورية المنشور فى المجلة نصف الشهرية عدد ١٢٦ (يولية ١٩٢٩) ص٤٦-٥٨ .

د- المقال الذى نشره فاليرى لاربود بعنوان جيمس جويس المنشور فى المجلة الفرنسية الجديدة بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٢٢ ص٣٨٥-٤٠٩ .

وهكذا وصلت من باريس إلى ميناء نيويورك نسخة من رواية «يوليسيس» متضمنة الكتابات النقدية السالفة الذكر. وأرسل سيرف إلى مصلحة الجمارك مندوبا عنه لاستلامها من الميناء. وكان اليوم قائظا بشكل فظيع. وبسبب الحرارة القاسية لم يرغب موظفو الجمارك فى تجشم مشقة تفتيش الحقائب أو حتى مصادرة الرواية المحظورة، بل أرادوا من صاحبها أن يخرج بكل محتويات الحقيبة دون تفتيش.

ولكن المندوب أصر على قيام رجال الجمارك بواجبهم حتى يتمكنوا من العثور على نسخة الرواية المحظور دخولها الأراضى الأمريكية. ولم يرغب موظف الجمرك فى مصادرة الرواية حتى بعد أن اكتشف وجودها قائلا: يا إلهى أرى أن كل شخص يحمل نسخة من هذه الرواية. ونحن لا نعير هذا التفاتا غير أن المندوب أصر على أن يؤدى موظف الجمارك المختص عمله ويقوم بمصادرة الكتاب.

وسرعان ما تسلم المندوب إشعارا من موظف الجمارك هـ. س. ستيوارت بضبط رواية «يوليسيس» لانتهاكها القسم ٣٠٥ من قانون التعريفة الجمركية باعتبارها مادة بذيئة. وفى نفس هذا الإشعار لفتت مصلحة

الجمارك نظر المندوب إلى قرار محكمة الجمارك لسنة ١٩٢٨ الخاص بحظر تداول عدد من الكتب ومن بينها «يوليسيس» بسبب بذاءتها فى الأراضى الأمريكية. وطعن المرسل إليه فى قرار مصلحة الجمارك وذهب إلى أن رواية «يوليسيس» تختلف عن بقية الكتب المصادرة فى أنها عمل أدبى. ولكن موظف الجمارك رفض الاقتناع بسلامة هذا الاعتراض وقام بتحويل الرواية إلى النائب العام الأمريكى فى منطقة جنوب نيويورك.

وانتهى الأمر بعرض المشكلة على صامويل كولمان مساعد أول النائب العام الأمريكى الذى أخذ على عاتقه قراءة الرواية. وعندما انتهى من قراءة الثلثمائة صفحة الأولى عرض عليه صاحب الطعن ليندى أن يزوده بكتب نقدية تساعده على استيعاب الرواية «بخاصة الكتاب الذى ألفه بول جوردان سميث بعنوان مفتاح قراءة رواية «يوليسيس» لجيمس جويس».

غير أن كولمان أبلغ ليندى أنه يفضل أن يتلمس طريقه بنفسه إلى فهم الكتاب فى المرة الأولى دون أية مساعدة خارجية. وبعد مطالعة الكتاب دون الاستعانة بأى شىء انتهى كولمان إلى رأى مفاده أن رواية «يوليسيس» رائعة أدبية ولكنها رغم ذلك بذيئة طبقا لمفهوم البذاءة فى القانون الأمريكى. ولكن كولمان أحجم عن تحمل مسئولية البدء فى اتخاذ الإجراءات القضائية ضد الرواية فلجأ إلى رئيسه جورج ميدلاى النائب العام الأمريكى. وبسبب اقتناعه بأهمية الكتاب لم يرفض ميدلاى أن يكون البادئ فى تحريك الدعوى. ولكنه وجد نفسه مضطرا إلى هذا بعد انتهائه من قراءة الرواية وبوجه خاص الجزء الأخير منها وبالذات الخواطر التى جالت فى ذهن الزوجة.

بدأ ميدلاى فى تحريك الدعوى ضد رواية «يوليسيس» يوم ٩ ديسمبر ١٩٣٢ . وذكر ميدلاى فى صحيفة هذه الدعوى أن استيراد هذه الرواية ينطوى على انتهاك قانون التعريفة الجمركية الصادر عام ١٩٣٠ ، وطالب بإدانة الرواية وحرقها طبقا للقانون. وردا على هذا دفع المحامى إرنست ببطلان هذا القرار وأنكر أن استيراد الرواية يعتبر انتهاكا لقانون التعريفة الجمركية وطلب من المحكمة السماح للرواية بدخول الأراضى الأمريكية. وكانت هذه بداية أشهر محاكمة للبذاءة عرفها التاريخ الأمريكى المعروفة فى السجلات الرسمية بقضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد كتاب يحمل عنوان «يوليسيس» .

ويلاحظ منذ بداية المحاكمة أن الحكومة تعاونت تعاونا كبيرا مع خصومها. فقد كان ميدلاى حريصا على قراءة كافة المستندات التى قدمها المحاميان إرنست وليندى للدفاع عن الرواية. فضلا عن استعداده لتلبية رغبة الخصوم فى أن ينظر فى هذه القضية قاض متعاطف مع جويس وروايته. ومن ناحيته بادر إرنست محامى الدفاع بطلب عدم محاكمة الرواية أمام هيئة من المحلفين فاستجابت المحكمة لطلبه، الأمر الذى اعتبره نصرا له وفاتحة خير حيث أن المحلفين أشخاص عاديون ليست لهم دراية بالفنون والآداب.

وبقيت مشكلة اختيار أنسب قاض للحكم فى هذه القضية. ووقع الاختيار على القاضى وولسى. ولكن هذا القاضى كان متغيبا. ولهذا قرر كولمان عرض القضية على القاضى كوكس الذى اعتبره الخصوم أنسب قاض للنظر فى هذه القضية فى غياب وولسى. وبدأت إجراءات التقاضى

فى ٢٣ مـايو ١٩٣٣ ، غـيـر أن الـقـاضـى كوكس رفض نظر الـقـضـيـة وقـام بتأجيلها حتى يوم ١٦ يونية (١٩٣٣).

وبينمـا الطرفان المتـخـاصـمـان ينتظران فـى قلق مـعـرفـة اسم القاضى المنوط به النظر فى القضيـة، تقدم ليندى بطلب إلى الحكومة الأمريكيـة كـى تعـتـبـر روايـة «يوليـسـيس» من الروائع أو أمـهـات الكتب. كـانت هذه فكرة المحـامـى إرنست. وهـى فكرة نصـح بإدخـالهـا كـمـادة فـى القـانون السـيناتور برونسون كـامنج الذى اقـتـرح إدخـال تعـبـيـر روائع الكتب فـى النزاع المحتدم حول الرقابة التى تفرضها مصلحة الجمارك الأمريكية عام ١٩٢٩/ ١٩٣٠ . واستغل المحامى إرنست هذه المادة فى الهجوم على الحكومة كى تمتنع عن مـقـاضـاة روايـة «يوليـسيس». وحـتـى يـتـمكن من تحـقـيق هدفه أوعـز بإرسال نسخة أخرى من الرواية تصل إليه من أوربا. وعند وصول هذه النسخة كتب المحامى إرنست إلى مصلحة البريد الأمريكية يستفسر فيها عما إذا كـانت قد غيرت موقفها الحـاظر لرواية «يوليسيس»، فإذا كـان موقفها لم يتغير فإنه لن يتسلم الكتاب من مصلحـة البـريد وسوف يقاضيها لمصادرتها له بمقتضى هذه المادة التى أدخلت فى قانون التعريفة الجمركيـة لعام ١٩٣٠ . وعندما أبلغته مصلحة البريد أنها لم ترفع الحظر عن رواية «يوليسيس» طلب إرنست من زمـيـله ليندى إعـداد التـمـاس للإفـراج عن روايـة «يوليـسـيس» والسـمـاح بتداولها فى الولايات المتحدة باعتبارها إحدى الروائع أو الكلاسيكيات.

ونظرا لأن ليندى كـان يـعـرف أن المحكمـة لن تعـتـبـر الرواية من الكلاسيكيات دون وجـود ما يؤيد ذلك فإنه أرفق بالتـمـاسه حـشـدا كبـيـرا من الآراء النقـديـة التـى تشـهـد بروعـة روايـة جـويس كـعـمل أدبـى. وهكذا أكـد

ليندى أهمية المخطط المبدئى الذى تمثل فى إلصاق آراء النقاد المقرظة فى مقدمة الرواية التى تم استيرادها توطئة لبدء عملية التقاضى. واستنادا إلى هذه الآراء النقدية التى تشيد بالرواية ذهب ليندى إلى أن «يوليسيس» تعتبر من الكلاسيكيات الحديثة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. ومضى ليندى فى شرح موقفه بقوله: لقد نبذنا منذ زمن طويل النظرية القائلة بأنه يجب أن تمر مئات أو آلاف السنين على إنتاج العمل الأدبى كى يصبح من الكلاسيكيات، فقد بدأنا ندرك أن هناك كلاسيكيات حديثة كما أن هناك كلاسيكيات قديمة.

وبطبيعة الحال تحاشى ليندى التركيز على الكتابات التى ترمى رواية «يوليسيس» بشدة البذاءة واكتفى بإيراد المقالات المعتدلة التى تقول إن البذاءة تشوب بعض فقراتها. وتجنب هذا المحامى إيراد الانتقادات اللاذعة لبذاءة الرواية مثل قول جيمس دوجلاس عنها: إنها أكثر الروايات الفاضحة بذاءة فى الأدبين القديم والحديث ومثل قول أرنولد بينيت عنها إنها ليست أدبا مكشوفا بل تفوق فى بذاءتها وإباحيتها وفجرها وإشاراتها البرازية معظم الكتب المعروفة ببذاءتها. واكتفى ليندى بالاستشهاد بقول أرنولد بينيت الكتاب ليس أدبا مكشوفا دون أن يكمل بقية ما كتبه بينيت عنه. ونحن نرى نفس الشيء فى مواضع أخرى فى الالتماس الذى تقدم به ليندى. وكذلك أورد ليندى فى ذلك الجزء من التماسه الذى يحمل عنوان تعليقات أمناء المكتبات على رواية «يوليسيس» الفقرات التى تثنى على الرواية واستبعد الآراء القادحة لها، مثل قول أحد أمناء المكتبات العامة فى ريفر سايد بكاليفورنيا إن المهتمين بهذه الرواية هم ضباط الجيش والناس المرفهين.

وبينما كان رئيس مصلحة الجمارك ينظر الالتماس الذى قدمه ليندى أصبح من الواضح لدى الدفاع عن جويس أن القاضى كولمان الكاثوليكى المتزمت أسوأ شخص يمكنه النظر فى القضية. ولهذا طلب ليندى تأجيل النظر فى القضية مرة أخرى. وحدث أن نيكولاس أطلس مساعد النائب العام كان ينوب آنذاك عن صامويل كولمان فى غيابه فوافق على التأجيل إلى يوم ١١ يولية ١٩٣٣ .

وبحلول يوم ١٦ يونية فى العام المشار إليه تلقى ليندى خطابا من رئيس مصلحة الجمارك الأمريكية جاء فيه أن هذه المصلحة وافقت على الالتماس المقدم إليها بطلب الإفراج عن رواية «يوليسيس»، وأثلج هذا الخطاب صدر كل من ليندى وإرنست. ولكن اللغة التى صيغ بها الخطاب كانت مبعثا لعدم ارتياحها، فقد أشار هذا الخطاب إلى أن الإفراج عن نسخة الرواية يتم بمقتضى السلطة المخولة لوزير الخزانة طبقا للقسم ٣٠٥ من قانون التعريفة الجمركية لعام ١٩٣٠ الخاص باستخدام كياسته فى الإفراج عن بعض الكتب التى تعتبر بذيئة. وينطوى هذا على اعتراف ضمنى من جانب الحكومة الأمريكية بأن الكتاب قد يكون من الروائع الأدبية ولكن هذا لا يمنع من بذاءته. وهكذا نرى أن رئيس مصلحة الجمارك الأمريكية يقر بأن رواية «يوليسيس» قد تكون رائعة أدبية ولكنها بذيئة فى الوقت نفسه. وهذا ما كان ليندى وإرنست يسعيان ما وسعهما السعى لإنكاره.

وكان لنجاح ليندى فى جعل الحكومة الأمريكية تعترف برواية «يوليسيس» كتحفة أدبية آثار مباشرة. فبعد انقضاء وقت قصير على ذلك

أعلن كولمان واطلس أن مكتب المحامى العام الأمريكى يرغب فى تأجيل آخر للقضية. وذهبا إلى أنهما يحتاجان إلى وقت لإعداد مذكرتهما. ولكن السبب الحقيقى فى رغبتهما فى التأجيل كان يرجع إلى وصول إدارة فيدرالية جديدة إلى سدة الحكم وتعيين وزير خزانة جديد ورئيس جديد لمصلحة البريد، الأمر الذى جعل الحكومة تفكر فى إسقاط إجراءات مقاضاة الرواية، وهو ما حدا بالمحامى إرنست إلى إرسال نسخة من التماس ليندى إلى كل من كولمان وأطلس على أمل أنه يؤثر هذا فى قرار الحكومة.

وبينما كان مكتب المحامى العام الأمريكى يتدارس التماس ليندى أحيلت أوراق القضية للمحكمة يوم ٢٥ يوليه ١٩٣٣ للنظر فيها دون أن يكون هناك أمل للدفاع فى الحصول على أية نتائج مرجوة نظرا لوجود نفس القاضى كولمان على منصة القضاء. ولهذا طلب أطلس تأجيل النظر فى القضية حتى يوم ٨ أغسطس (١٩٣٣)، وهو ما رفضه القاضى كولمان على أساس أن القاضى كوكس الذى سيرأس الجلسة عبر عن عدم رغبته فى نظر القضية. ولهذا طلب أطلس تأجيل نظر القضية حتى يوم ١٥ أغسطس. ولكن القاضى باترسون المنوط به رئاسة الجلسة فى ذلك التاريخ كان أيضا عازفا عن سماعها والنظر فيها، ونتيجة لهذا تقرر تأجيل نظر القضية حتى ٢٢ أغسطس عندما يتولى القاضى وولسى رئاسة الجلسة.

ومن ناحيتهما استمر المحاميان إرنست وليندى فى سعيهما إلى إقناع العاملين فى مكتب المحامى العام الأمريكى بالتوقف عن اتخاذ الإجراءات القانونية ضد الرواية. وتقابل المحاميان إرنست وليندى مع

كولمان وأطلس يوم ٧ أغسطس. وفى اليوم التالى للمقابلة أرسلا طردا يحتوى على المادة التى طلبها منهما كل من كولمان وأطلس أثناء اللقاء. وهذه المادة عبارة عن نسخ من كتب تناولت قضايا البذاءة السابقة على قضية «يوليسيس» ومذكرتين أعدهما المحاميان إرنست وليندى ونشرة تحتوى على تعليقات نقدية حول الترجمة الفرنسية لرواية «يوليسيس» وخريطة للولايات المتحدة تبين مواقع المكتبات العامة التى أبدت اهتماما بالحصول على نسخة من هذه الرواية، وكذلك نسخة من الكتاب الذى ألفه بيتر أ. بيرتروف. وبحلول ١٥ أغسطس أصبح من الواضح أن كولمان وأطلس سوف يستمران فى مقاضاة الرواية. وبات قرار حظر الرواية أو السماح بدخولها فى الولايات المتحدة رهنا بما يحكم به القاضى وولسى.

وبعد وقت قصير من اتضاح نية مكتب المحامى العام الأمريكى باتخاذ الإجراءات القانونية ضد الرواية أعلن القاضى وولسى أنه سوف يستمع إلى الدفوع دون مذكرات مكتوبة وأنه لن يسمح بتداول المذكرات إلا إذا طلب من المتقاضين تقديمها. وراقت هذه الترتيبات للحكومة واتفقت مع رغباتها. ولكنها لم ترق لدار النشر راندوم هاوس أو لمستشارها القانونى. وكان سيرف مقتنعا بضرورة تحويل كل الكتابات التى تم تجميعها للدفاع عن «يوليسيس» إلى القاضى وولسى قبل انتهائه من قراءة الرواية. وهو نفس الرأى الذى انتهى إليه المحاميان ليندى وإرنست. وفى شهر سبتمبر تعمد المحامى ليندى تجاهل تعليمات القاضى وولسى وأرسل إليه نسخة من المذكرة المبدئية للدفاع (وهى تشمل المادة التى ذكرها ليندى فى التماسه وكتابين فى النقد الأدبى عن رواية يوليسيس) . وأراد

ليندى أن يرسل إلى القاضى وولسى كتابا ثالثا هو الكتاب الذى ألفه ستيوارت جلبرت بعنوان رواية «يوليسيس» تأليف جيمس جويس. ولكن سام كولمان أبلغه أن وولسى يقتنى نسخة من هذا الكتاب. ولهذا أرسل إليه بدلا منه الكتاب الذى ألفه بول جوردان سميث بعنوان «مفتاح رواية يوليسيس لجيمس جويس» وكتاب هربرت س. جورمان «الأربعون سنة الأولى من حياة جيمس جويس». وبعد انقضاء شهر قام إرنست وليندى بإرسال نسخة من مذكرة الدفاع إليه. وبسبب حدوث بعض التعديلات لم يتمكن القاضى وولسى من سماع المرافعات إلا فى ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ . وبطبيعة الحال كان القاضى وولسى يحتاج إلى كثير من الوقت لدراسة الكتابات التى أرسلها إليه المحاميان إرنست وليندى للاستفادة منها فى متابعة القضية.

والجدير بالذكر أن الجزء التمهيدى لمذكرة الدفاع كان فى امتلائه بالدراسات النقدية أشبه ما يكون بنسخة الرواية المستوردة من باريس والمفعمة بالتعليقات الأدبية والدراسات النقدية. فضلا عن أن الالتماس الذى قدمه الدفاع إلى هيئة المحكمة باعتبار يوليسيس من روائع الأدب العالمى يدل على أن آراء الأدباء والنقاد فى هذا العمل الروائى سوف تلعب دورا حاسما فى الدفاع عن الرواية موضع التقاضى، كما أنها تدل بوجه خاص على أن هدف الدفاع من وراء ذلك هو معارضة الرأى الذى ذهب إليه مكتب المحامى العام الأمريكى ووزير الخزانة الأمريكية ومفاده أن العمل الأدبى يمكن أن يجمع بين الفن والبذاءة فى صعيد واحد. وذهب المحامى إرنست إلى أن جويس أهم كاتب فى عالم الأدب فى يومنا الراهن

استنادا إلى آراء تسعة من كبار نقاد الأدب منهم ستيوارت جلبرت وربيكا وست وأرنولد بينيت وإدموند ويلسون. وأكد المحامى إرنست أنه لا يمكن لرواية بمثل روعة «يوليسيس» أن تكون بذيئة. يقول إرنست فى هذا الشأن: إنه لشىء فظيع أن نفترض أن رجلا فى شموخ جويس يكتب عملا بذيئا.

حاول إرنست القول بأن الأدب والبذاءة لا يجتمعان فى صعيد واحد. وهو نفس الرأى الذى سبق أن ذهبت إليه المحررة مارجريت أندرسون. وهذا يتفق فى عمومه مع النظرة الجمالية للفن. وهى نظرة تنفى وجود أى هدف أخلاقى للفن كما تنفى الزعم بأن الأدب يمكنه إفساد الأخلاق. وبمعنى آخر دافع المحامى إرنست عن «يوليسيس» على أساس جمالى بحت. ثم إن المعايير الأخلاقية تتغير بتغير الزمن. وهكذا أنكر إرنست إطلاق صفة البذاءة على الرواية وأنها تدمر المواضعات الأخلاقية أو السياسية أو الدينية السائدة فى عصره. ولا ريب أن استناد دفاع إرنست إلى النظرة الجمالية للفن يختلف اختلافا جذريا عن دفاع جون كوين عن الرواية عام ١٩٢٠ / ١٩٢١، ولعلنا نذكر أن هذا المحامى اعترف أن جزءا من حكاية نوسيكا المنشور فى عدد يوليه/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة قمين بإفساد الأخلاق. وهو موقف يختلف اختلافا جذريا عن دفاع إرنست الذى ينكر انطواء الرواية على أية أبعاد مسيئة للأخلاق. ويمكن تلخيص الدفاع عن «يوليسيس» من منطلق جمالى فى النقاط الست التالية:

(١) أن الحكم على بذاءة أى عمل فنى يتوقف على المعايير السائدة فى زمانه. وهى معايير غير ثابتة وتتغير بتغير هذا الزمان.

(٢) أن رواية «يوليسيس» ليست بذيئة وليس فيها ما ينتهك القانون.

(٣) تعتبر رواية «يوليسيس» من الروائع الأدبية أى من الكلاسيكيات الحديثة. وقد اعترفت حكومة الولايات المتحدة رسميا بذلك. ومن ثم لا يمكن اعتبارها بذيئة.

(٤) أن الخصائص الداخلية لرواية «يوليسيس» إلى جانب بعض حقائقها الخارجية المعينة تنفى وجود أية إيماءات بذيئة فيها.

(٥) أن المجتمع بوجه عام تلقى بالقبول رواية «يوليسيس»، ومن ثم لا يمكن القول بأنها تنتهك القانون.

(٦) يجب الحكم على رواية «يوليسيس» ككل كما يجب تحديد هدفها وأثرها العام. وعلى هذا الأساس يجب تبرئتها من تهمة البذاءة.

وبالنسبة إلى النقطة الأولى المتمثلة فى تغيير معايير البذاءة قال المحامى إرنست فى دفاعه عن الرواية إن التجربة العملية هى المحك فى الحكم عليها. ففى عام ١٩٠٠ كان الشخص (سواء كان ذكرا أم أنثى) يلقى القبض عليه إذا ما ظهر عارى الذراعين والساقين على شاطئ البحر. فى حين طرأ تغير كبير فى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين حيث نرى المايوهات على البلاجات تكشف عن معظم أجزاء الجسم. وذهب المحامى إرنست إلى أن هذه التغيرات التى طرأت على المعايير الأخلاقية انعكست على تلقى الناس للأعمال الأدبية واستقبالهم لها. ويتجلى هذا فى استقبال الجمهور لرواية «جين إير» لشارلوت برونتى و«آدم بيد» لجورج إليوت و«أوراق الحشائش» لويتمان و«تس سليلة آل دربرفيل» لتوماس هاردى. فقد استقبلت هذه الأعمال فى الماضى بالاستنكار واتهمت بالبذاءة والإباحية

والخروج على الأعراف فى حين أن هذه الأعمال تعتبر الآن من روائع الأدب. فضلا عن أن المعايير الأخلاقية السائدة فى المجتمع انعكست - كما يقول المحامى إرنست - على نوعية الموضوعات التى يدور حولها كثير من الكتب التى ظهرت مؤخرا مثل رواية «بئر الوحشة» لرادكليف هول، وحب الأزواج لمارى ستوبس، ورواية «الموت فى البندقية» لتوماس مان. وجميعها تعالج أمور الجنس بجرأة أكبر مما كانت تعالج به فى الماضى. وينتهى إرنست إلى القول، فى ضوء هذه الحقائق نخلص بوضوح إلى أن رواية (يوليسيس) لا تنتهك قوانين البذاءة الأمريكية. ويبدو من الظاهر أن المحاجة التى ساقها إرنست تكاد أن تكون أخلاقية تماما ولكن نجد فى نهاية هذه المحاجة أن المحامى إرنست يلفت نظر القاضى وولسى إلى التحليل العلمى الذى يقدمه الناقد ستيوارت جلبرت فى كتابه رواية «يوليسيس» تأليف جيمس جويس (ص ١٩ _ ٢٢). وهذه المحاجة نجحت فى تحويل النقاش حول الرواية من منظور أخلاقى إلى منظور جمالى. ويؤكد جلبرت فى تحليله أنه لا يوجد أى تهتك أو انحلال فى رواية «يوليسيس» إذا كان المقصود بهما إثارة الشهوة الجنسية. يقول المحامى إرنست فى تأييده لوجهة النظر هذه إن الهدف من رواية «يوليسيس» يرمى إلى رسم صورة جمالية للعالم. ويضيف جلبرت أن تحريك العواطف الجمالية عملية سكون إستاتيكية لا تثير الشهوة مثلما تثيرها العملية الحركية (Kinetic). ومصداقا لقوله يقتطف جلبرت الفقرة التالية فى رواية صورة الفنان فى شبابه لجيمس جويس تهدف الرواية إلى إيقاف العقل وضبطه ثم رفعه إلى مرتبة تسمو على عاطفتى الرغبة

والمقت أو النفور؛ فى حين أن المشاعر التى يحركها الفن الرخيص حركية وتدفع إلى الرغبة التى تدفع بدورها إلى التملك والانجذاب نحو شىء، كما أن التنفير يدفعنا إلى التخلى عن شىء والابتعاد عنه. والأدب المكشوف يثير الرغبة كما يهدف الأدب التعليمى إلى التلقين والتعليم. ولهذا فإنهما أدب لا يليق.

ويعترف الناقد جلبرت أن بعض المواضع فى رواية يوليسيس لا تحقق المثل الأعلى للسكون الجمالى. غير أن هذا الناقد رغم ذلك يؤكد أن الرواية تحقق حالة من السكون فيما يتعلق بإثارة شهوات الجسد. يقول الناقد جلبرت فى هذا الشأن: إن الشعور بالاشتهاء الذى يدفعنا إلى التملك غائب، فالرواية تخلو تماما من أية إشارة أو دعوة إلى الاشتهاء الجنسى، فى حين أن المرء يشعر شعورا مؤكدا أن التنفير الذى يدفعنا إلى التخلى عن التملك واضح فى بعض الفقرات المعينة..

ويرى جلبرت أن رواية «يوليسيس» لجيمس جويس تعتقل أو تقمع المشاعر الحركية فى عقول قرائها... هذه المشاعر الحركية هى التى تخلع على الرواية صفة البذاءة. وعلى العكس من هذا يرى جلبرت أن نجاح جيمس جويس فى خلق حالة السكون فى روايته يرجع إلى نجاحه فى تقديم عمل أدبى قادر على خلق حالة من السكون الجمالى فى قرائه. ولا شك أن المحامى إرنست كان يرى من وراء دفاعه هذا إقناع القاضى وولسى بأن رواية «يوليسيس» عمل جدير بالاحترام وليس فيه ما يثير من الناحية الجنسية.

وقد سبق لإرنست أن جادل بأن رواية «يوليسيس» ليست بذيئة من وجهة النظر القانونية. وهكذا سعى إرنست إلى أن يبين أن التعريفات

القانونية لكلمة البذاءة تتغير بتغير الزمان شأنها فى ذلك شأن الأخلاق الاجتماعية. فضلا عن سعيه إلى إقناع القاضى بأن مفهوم البذاءة فى العصر الفيكتورى (أى فى القرن التاسع عشر) كما تتجلى فى القواعد القانونية التى وضعها القاضى هيكلين لم تعد تناسب التطورات التى حدثت فى المجتمع بعد انقضاء العصر الفيكتورى. ويتمثل هذا المفهوم الفيكتورى للبذاءة فى القانون الذى استنه هيكلين فى اعتبار البذاءة مرادفة لكلمات التهتك والانحلال وانتفاء التهذيب فى حين جرت الممارسات الحديثة على تعريف البذاءة على نحو أشد ضيقا بأنها تلك التى تثير الاشتهاء والرغبات الجنسية الداعرة. وفى حين اعتبرت المعايير الفكتورية الشاب أو الشابة مقياسا للحكم على الأدب المفسد للأخلاق، يذهب إرنست إلى أن المفهوم الحديث للبذاءة يتوقف على معيار الشخص العادى. وبينما كان المعيار أو المحك الفيكتورى لا يقيم وزنا أو اعتبارا لنوايا المؤلف بشأن تعمده أو عدم تعمده الإثارة الجنسية نرى أن الممارسات الحديثة تأخذ نوايا المؤلف فى الاعتبار. ولهذا لا يمكن الحكم ببذاءة أى كتاب إلا إذا تبين أن هدف المؤلف الرئيس هو إثارة الشهوات. هذا ما ذهب إليه المحامى إرنست فى دفاعه عن رواية «يوليسيس». وثمة نقطة أخيرة: كان المحك الفيكتورى يبرر حظر الكتاب برمته إذ اتسمت بعض أجزائه بالبذاءة دون النظر إلى الكتاب ككل، فى حين أن الموقف الحديث يتطلب من المحكمة أن تنظر إلى الكتاب ككل حتى وإن وردت فيه بعض الفقرات البذيئة فى حد ذاتها.

إن المحاجات التى ساقها المحامى إرنست عند الحكم على بذاءة العمل الأدبى قد تبدو فى بعض الأحيان أخلاقية أكثر من كونها جمالية. ولكن

يجدر بالذكر أن المحامى إرنست اختتم مناقشته للتعريفات القانونية للبذاءة بقوله: لا يمكن للمرء أن يتحدث عن بذاءة «يوليسيس» حيث إن بذاءتها تشبه ما فى الحياة والفكر من بذاءة. أو ليست الحياة بذيئة أحيانا. على أية حال لم يكن إزرا باوند يفكر مطلقا فى بذاءة «يوليسيس» على هذا النحو. فالرأى عنده أن بذاءة هذه الرواية شبيهة ببذاءة الحياة فى بعض المواضع. وعلى أية حال تعمد إرنست أن يتجنب بوجه عام مناقشة بذاءة الحياة فى بعض المواضع. كما تعمد إرنست بوجه عام مناقشة بذاءة الرواية على أساس أخلاقى، فقد تركزت محاجته على أن العمل الأدبى لا يمكن أن يكون بذيئا. وبما أن رواية «يوليسيس» عمل أدبى فلابد من خلوه من البذاءة. عندئذ لا معنى للكلام عن نوايا المؤلف والتساؤل عن مقصده. وكما أسلفنا استند إرنست فى دفاعه أساسا إلى أن رواية «يوليسيس» من روائع الأدب الحديث، وأن الحكومة الأمريكية اعترفت رسميا بهذا. ولهذا السبب فإنه من غير الممكن اعتبارها رواية بذيئة. وبطبيعة الحال لم يفت إرنست أن يذكر المحكمة بأن رئيس مصلحة الجمارك أقر بأن رواية «يوليسيس» رائعة من روائع الأدب وأنها عمل أدبى فذ. يقول إرنست فى هذا الشأن: لا يمكن الجمع بين الروائع الأدبية والبذاءة فى صعيد واحد، فهما طرفا نقيض. ووجود الواحد منهما ينفى وجود الآخر. إن الشىء البذىء مفسد للأخلاق ومدعاة للحطة، ولا يمكن أن ينتمى إلى أسمى مرتبة، كما أنه لا يمكن الإقرار ببذائته طبقا للتعريف الوارد فى قاموس وبستر الذى يعرف العمل الأدبى الرائع بأنه ذلك الذى ينتمى إلى أرفع مرتبة ويتسم بالامتياز المعترف به.

ويمضى المحامى إرنست فى دفاعه عن الرواية قائلا بأن المحاكم

لم تغفل هذه الحقيقة قط: إن المحاكم طالما أكدت لنا مرارا وتكرارا أنه لا يمكن استدعاء قانون البذاءة لحظر الأعمال الخالدة على مدار الزمن والتى حظيت باعتراف الإنسانية وتقريظها الدائم، غير أن هذه النقطة بالذات كانت محل خلاف وجدل. فقد سبق أن رأينا القاضى سام كولمان يقر بأن رواية «يوليسيس» تحفة أدبية. ومع ذلك فقد أصر على بذاءتها بمقتضى القانون الفيدرالى. ولعلنا نذكر أن رئيس مصلحة الجمارك وافق على دخول نسخة من رواية «يوليسيس» الأراضى الأمريكية بمقتضى مواد التعريفة الجمركية لسنة ١٩٣٠, ويتضح لنا من هذا أن الحكومة الأمريكية رأت أن العمل الأدبى يمكن أن يكون بذيئا ورائعا فى الوقت نفسه.

ولكن إرنست فى دفاعه ذهب إلى رأى مغاير تماما فهو يرى أنه لا يجوز حظر الأعمال الأدبية بمقتضى القانون لأن العمل الأدبى بطبيعته يتعارض مع البذاءة. ولهذا نراه حين يوافق على ما جاء فى مقال منشور فى «صحيفة لندن القانونية». إن الروائع الأدبية لا يمكن أن تكون بذيئة إلا إذا كانت ظروف بيعها أو عرضها تلفت الأنظار إلى تلك الأجزاء فيها والتى تترك أثرا مفسدا عند النظر إليها خارج سياقها الأدبى والتاريخى. ولكنه يرى أن تلك الأجزاء فى الرواية الأدبية التى لها بالقوة أثر إباحى ماجن يبطل مفعولها الإباحى عند النظر إلى العمل الأدبى ككل. وعندما أيد القاضى أغسطوس د. هاند قرار مصلحة البريد بحظر إرسال عدد مجلة «الريفيو الصغيرة» (الصادر فى أكتوبر ١٩١٧) الذى يحتوى على رفيقة كانتلمان فى فترة الربيع عبر عن رأى مغاير إذ قال إن الروائع الأدبية تتمتع بحصانة ضد الحظر لأنها تحظى بالشهرة وموافقة الحقب عليها.

وهى فى العادة تروق نسبيا لعدد محدود من القراء. وبمعنى آخر فإن هذه الروائع تتمتع بحصانة ضد قانون البذاءة ليس لأن أجزاءها تخلو من البذاءة وتعجز عن إلحاق الضرر. ولكن بسبب ما تحظى به من احترام وتبجيل عبر الزمن. وقد لخص الأديب الأمريكى الشهير مارك توين مكانة هذه الروائع بقوله بأنها تحظى بالاحترام والتبجيل أكثر مما تحظى بإقبال الناس على قراءتها.

ويثير دفاع إرنست عن الرواية الذى يتمثل فى أن الأدب الرفيع والبذاءة لا يمكنهما الاجتماع فى مكان واحد نقطة بالغة الأهمية، وهى العلاقة التى تربط بين أجزاء الرواية وكلها. وكان إرنست بارعا فى دفاعه عندما لم يكتف بالتأكيد على اكتمال العمل الأدبى وتكامل الجزء مع الكل، بل عالج الصعوبات الجمة التى تكتنف قراءة رواية «يوليسيس» التى تستغلق على الأفهام وتقتضى من القارئ المثابرة والجهد الجهيد. وبطبيعة الحال كان هدف المحامى إرنست من وراء ذلك أن يؤكد قلة عدد القادرين على قراءة وفهم هذه الرواية.

وتطرق إرنست إلى توفر العلانية فى نشر رواية «يوليسيس» فهى تحمل اسم مؤلفها جهارا. فى حين أن الأدب المكشوف يحرص دائما على عدم ذكر كاتبه. ولو كان جويس يبغى الإثارة لما اختار اسم «يوليسيس» الكلاسيكى عنوانا لروايته بل اختار اسما أكثر إثارة. فضلا عن أن قراءة هذه الرواية شيء ممل وصعب للغاية، ولن يستطيع الساعى إلى الإثارة الجنسية أن يطالع أكثر من الاثنتى عشرة صفحة الأولى من الرواية. وتناول المحامى لغة الرواية الصعبة والمعقدة وتساءل: هذا يمكن للراغب

فى الإثارة الجنسية أن يقدم على قراءة رواية بمثل هذه الصعوبة اللغوية؟

وتجاوز دفاع إرنست معالجة مضمون الرواية أو فحواها ليتطرق إلى أسلوبها وطريقتها فى السرد متناولاً مدى العسر الذى يجده قراؤها فى فهمها بسبب صعوبة أسلوبها وطريقتها فى السرد. يقول إرنست فى هذا الشأن: ليست اللغة وحدها سبب الحيرة والبلبلة، فبناؤها معقد على نحو لا يصدقه عقل. ويستطرد إرنست فى دفاعه فيقول إن أكثر القراء تعليما لا يستطيعون فهم رواية «يوليسيس» دون الاستعانة بكتاب ستيوارت جلبرت عنها. وقد اعترض الناقد إدموند ويلسون فى عام ١٩٣٠ بقوله إن صعوبات جمة فى «يوليسيس» تستعصى على أكثر نقاد الأدب حذقا ومهارة. كما أن القارئ العادى يعجز عن فهمها. ويؤكد إرنست أن رواية «يوليسيس» كيان متكامل فى واقع الأمر. ويوحى نقده بأن الذين يعجزون عن فهم صعوبة التخطيط الذى ترتكز عليه الرواية ليسوا جديرين بالحكم عليها على الإطلاق، وأن الذين يعتبرون الرواية بذيئة لا يدركون ما فى الرواية من تكامل. وبذلك يكون إرنست قد مهد الطريق أمام القاضى وولسى لاستيعاب هذه الحقيقة. وكذلك أكد إرنست أنه لا سبيل إلى فهم رواية «يوليسيس» إلا عن طريق فهم بنائها الروائى ككل. كما أنه لا يمكنه فهم الرواية إلا إذا تغلب قراؤها على الحواجز والعقبات المتمثلة فى أسلوبها، والقراءة المتمعنة والمركزة للرواية هى السبيل الوحيد لفهمها. والقارئ المتصفح لبعض فقراتها سوف يجدها خالية من المعنى. ولن يستطيع المرء أن يسبر غورها إلا عن طريق الدراسة والمثابرة. والقارئ لها لن يتمكن من فهمها إلا إذا بلغ شأوا عظيما فى الثقافة وكان على معرفة دقيقة

بالأدب الكلاسيكى وعلى رأسها الأوديسا لهوميروس.

وهكذا تجاوز دفاع إرنست مضمون الرواية أو فحواها ليتطرق إلى أسلوبها وطريقتها فى السرد. وتناول مدى العسر الذى يجده قارئ هذه الرواية فى فهمها بسبب صعوبة أسلوبها وطريقتها فى السرد. يقول إرنست فى هذا الشأن:

«ليست اللغة وحدها سبب الحيرة والبلبلة، فبناؤها معقد على نحو لا يصدقه عقل. وكما أوضح الناقد ستيوارت جلبرت فإن لكل حكاية من حكايات «يوليسيس» المنظر الخاص بها والوقت والساعة التى تحدث فيها. فضلاً عن أن كل حكاية ترتبط بعضو معين من أعضاء الجسم، إلى جانب ارتباطها بفن معين وإتباع الرمز والتكنيك الروائى الخاص بها، كما أن لكل حكاية عنوانها المتمشى مع إحدى الشخصيات أو الحكايات الواردة فى أوديسا هوميروس. وكذلك نرى لبعض الحكايات المعينة اللون المناسب لها. فعلى سبيل المثال نرى أن الحكاية التى تدور فى مكتب صحيفة الرجل الحر والمطبعة القومية تحمل عنوان أبولوس. وهى تحدث فى الساعة الثانية عشرة ظهرا والعضو الذى تدور حوله هو الرئتان.. واللون الذى تتميز به هو اللون الأحمر...»

ويذهب إرنست فى دفاعه إلى أن أكثر القراء اطلاعا يعجزون عن فهم رواية «يوليسيس» دون الاستعانة بكتاب ستيوارت جلبرت عنها. وقد اعترف الناقد الكبير إدموند ويلسون فى عام ١٩٣٠ بأن جانبا كبيرا من «يوليسيس» يستعصى على أكثر نقاد الأدب حذقا ومهارة، الأمر الذى يؤكد عجز القارئ العادى عن فهمها. وفى نفس الوقت يذهب إرنست إلى أن

رواية «يوليسيس» فى واقع الأمر كيان فنى متكامل. ويوحى نقده بأن الذين يعجزون عن فهم صعوبة الخطة التى أعدها المؤلف للتوضيح والتى ترتكز عليها الرواية غير جديرين بالحكم عليها على الإطلاق، وأن الذين يعتبرون الرواية بذيئة لا يدركون أن الرواية كل متكامل. وبذلك يكون إرنست قد مهد الطريق أمام القاضى وولسى لاستيعاب هذه الحقيقة، فقد أكد إرنست أنه لا سبيل إلى فهم «يوليسيس» إلا إذا تم فهم بناءها الروائى ككل، كما أنه لا يمكن فهمها إلا إذا تغلب على أسلوبها المبهم الغامض. فالقراءة المتمعنة والمركزة للرواية هى السبيل الوحيد لفهمها. فمن يتصفح فقراتها سوف يجدها فقرات مفككة ومنبتة الصلة وخالية من أى معنى. والقارئ لها لن يتمكن من فهمها إلا إذا بلغ شأوا عظيما فى الثقافة والاطلاع الواسع فى كلاسيكيات الأدب القديم.

واستشهد إرنست برأى الناقد جوردان سميث الذى ذهب فى كتابه «مفتاح رواية يوليسيس لجيمس جويس» إلى أن لغة الرواية أشبه ما تكون بالطلاسم والألغاز وباللغة الصينية، وأن القارئ بحاجة إلى من يفك هذه الطلاسم حتى يتمكن من استيعابها، أى أنه _ على حد قوله _ يحتاج إلى من يترجمها له إلى اللغة الإنجليزية. وبوجه عام تحاشى إرنست مناقشة أجزاء الرواية التى لا تخفى بذاءتها على أحد مثل ممارسة بلوم للعادة السرية على الشاطئ فى حكاية نوسيكا، وهنا يكمن فرق مهم بين طريقتى المحاميين إرنست وكوين فى الدفاع عن الرواية. ففى حين ذهب كوين إلى أن مثل هذه الحكاية تنفر القارئ من الجنس ولا تغريه به؛ اهتم إرنست على العكس من ذلك على التركيز على أسلوب الرواية وطريقة بنائها

مؤكدا أنهما - وليس المضمون - اللذان يدعوان إلى النفور والتقزز. وأيضا يذهب إرنست إلى أن التكنيك الروائى الذى اتبعه جويس فى رواية «يوليسيس» المعروف بتيار الشعور قمين بتنفير القارئ العادى منه:

«ليست هناك حاجة إلى أن أحلل أسلوب (تيار الشعور) الذى بلغ به جويس أرفع درجة من الكمال فى رواية «يوليسيس». ويكفى القول بأن طبيعة هذا الأسلوب تنفر القارئ العادى من مواصلة القراءة ولا تشجعه على المضى فيها لأن هذا القارئ يهتم أصلا بالأكشن (الأحداث) ولا يهتم بالفكر أو ما يدور فى العقل».

هذه النقطة أصبحت مألوفة الآن فقد بات من المعروف أن أسلوب «يوليسيس» يجعلها تستغلق على القارئ، حيث إن فهم الرواية يقتضى من قارئها أن يتمتع بأعلى وأعقد درجة من الثقافة. وهى نقطة تتفق مع النظرة الجمالية التى يستند إليها دفاع إرنست عن الرواية ككل، وتؤكد مدى ابتعاد إرنست عن اتباع المنهج الأخلاقى الذى سبق للمحامى كوين أن اتبعه فى دفاعه عن رواية «يوليسيس» عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ .

وبعد أن عالج إرنست باستفاضة خصائص رواية «يوليسيس» الداخلية انتقل هذا المحامى إلى النظر فى الظروف الخارجية التى ينبغى أخذها فى الاعتبار عند الحكم عليها مثل سمعة المؤلف الأدبية وآراء النقاد فيه وموقف أمناء المكتبات من الكتاب وتقبل المكتبات والمؤسسات العلمية المحترمة له، فضلا عن أسلوب توزيعها. ولم يمل المحامى إرنست من التأكيد على استحالة إلصاق تهمة البذاءة بكاتب بهذا القدر من السموق والشموخ... كاتب زودت أعظم المكتبات رفوفها بنسخ من روايته مثل

مكتبة الكونجرس ومكتبة نيويورك العامة ومكتبة ويدنر فى هارفارد. فليس من المعقول أن تحتفظ هذه المكتبات المحترمة بكتب داعرة أو ماجنة، كما أنه لا يعقل أن تقترح مؤسسات علمية محترمة على دارسيها قراءة الأدب المكشوف كجزء من مناهجها الدراسية.

وثمة نقطة أخرى مفادها أن المجتمع بوجه عام تلقى رواية «يوليسيس» بالقبول. ومن ثم لا يمكن اعتبار نشرها انتهاكا للقانون. وهذا أمر تؤيده المادة التى ألحقها المحامى ليندى بالالتماس الذى قدمه بشأن ضرورة الاعتراف برواية «يوليسيس» كرائعة أدبية. وهو الالتماس الذى ضمنه رافع الدعوى فى المذكرة التمهيدية... تلك المذكرة التى تتضمن آراء المشتغلين بالأدب فى أهمية «يوليسيس». وطبقا لما يراه إرنست فإن الأشخاص الذين يحق لهم الحكم على بذاءة أو عدم بذاءة الرواية، كما يحق لهم الحديث بالنيابة عن الرأى العام هم أساتذة الجامعات والنقاد والمتعلمون والمؤلفون وأمناء المكتبات ورجال الدين. ولا يحق لرجل الشارع الإفتاء فى مثل هذه الأمور، فمن له حق الإفتاء فيها لابد وأن يكون شخصا مسئولا. ولا شك أن هذا هو السبب الذى حدا بإرنست أن يطلب من المحكمة استبعاد هيئة المحلفين من محاكمة الرواية والاكتفاء برأى القاضى فيها، وهو أمر يتمشى مع رأيه المنادى بأن النقاد والمشتغلين بالأدب هم جهة الاختصاص وأصحاب الكلمة الأولى والأخيرة فى هذا الموضوع.

وأخيرا طالب إرنست بالحكم على رواية «يوليسيس» ككل وبذلك يكون دفاع إرنست قد وضع إصبعه على نقطة بالغة الحيوية عند الحكم على بذاءة أو عدم بذاءة أى كتاب. وتثير هذه النقطة علاقة الجزء بالكل.

وهى نقطة يشوبها الغموض حيث توحى بأن الروائع الأدبية قد تنطوى فى بعض أجزائها على قدر من البذاءة. يقول إرنست فى هذا الصدد:

«لا يمكن ولا ينبغى الحكم على رواية («يوليسيس») على أساس ما فيها من فقرات منفصلة. وبفرض أن الرواية تحتوى من آن لآخر على حكايات سيئة المذاق، تبقى الحقيقة أن البذاءة ليست مسألة كلمات أو أمثلة محددة أو حتى فصولاً كاملة بل هى مسألة الكل الروائى. وحتى يكون هناك ما يبرر إدانة رواية «يوليسيس» يجب أن يكون هذا الكل الروائى منتهكا للقانون. إن المحكمة طالعت الكتاب وتعرف أن تلك الأجزاء التى يمكن أن تنطوى على أى انتهاك ملحوظ لا تعدو أن تكون جزءا تافها من الكل».

ولا يعترف إرنست صراحة ببذاءة بعض أجزاء الرواية ولكنه يوحى إلينا بذلك حيث إنه فى الأساس يؤمن بالنظرة الجمالية للأدب التى تذهب إلى أن يستحيل على الروائع الأدبية أن تتسم بالبذاءة. وهو رأى يتمشى مع اعتقاد الناقد ستيوارت جلبرت بأن العمل الأدبى العظيم يخلق فى قارئه حالة من السكون stasis تمنعه من أن يترك فى قارئه أثرا أخلاقيا ضارا من أى نوع، فهو يقول: «إن فكرة الأدب الفاضح لا تتمشى على الإطلاق مع جهد الفنان الجاد لتصوير الحقيقة واستمرارها فى الأعمال الأدبية. ويستشهد إرنست بأقوال هربرت جورمان الذى يردد مقولة ستيفن بطل رواية «صورة الفنان فى شبابه» وفحواها أن الأديب الحق يمقت الأدب المكشوف قدر مقته للأدب التعليمى، وهو رأى يذهب إلى أن العمل الأدبى الحق لا يمكن أن يكون مفسدا للأخلاق. ويعتقد إرنست أن جويس يساعد على انقشاع رقعة الظلام والتلطيخ فى عقولنا بإلقائه الضوء على ما فى

هذه العقول من ظلمة. ويضيف إرنست أن حالة السكون التى يخلقها العمل الفنى فى قارئه تجعل هذا العمل عاجزا عن ترك أى أثر بذئ أو فاضل فى نفس القارئ. ومعنى هذا أن إرنست فى دفاعه عن الرواية يشك فى أن الناس فى حقيقة الأمر يتأثرون بما يقرأون.

ويجدر بالذكر أن مكتب المحامى العام الأمريكى التزم بتعليمات القاضى وولسى بعدم تقديم أية مذكرات كتابية إلى هيئة المحكمة. ويمكن الاستدلال على موقف الحكومة فى هذه القضية من مذكرتين داخليتين: أولاهما الحصر الذى قام به سام كولمان لعدد الفقرات البذيئة الواردة فى رواية «يوليسيس» (كما هى موجودة فى نسخة الرواية التى صادرتها مصلحة الجمارك الأمريكية وسلمتها إلى مكتب المحامى العام الأمريكى لتصل فى نهاية المطاف إلى يدى القاضى وولسى). كذلك الفقرات البذيئة الواردة فى الصحف والمناقشات والمجادلات الشفوية التى احتدمت أمام القاضى وولسى يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ . ويمكن القول بثقة إن إحدى المذكرات الحكومية التى تحمل عنوان قضية الولايات المتحدة ضد رواية «يوليسيس» تنسب إلى نيكولاس أطلس حيث إنها تطابق تماما المناقشة التى قام أطلس فيما بعد بنشرها تحت عنوان «جيمس جويس» فى النشرة التى يصدرها مكتب المحامى الأمريكى العام لمنطقة جنوب نيويورك باسم «الكناشة».

أما المذكرة الأخرى التى تحصر الفقرات البذيئة التى وردت فى «يوليسيس» فتحمل عنوان تحليل الكتب المقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة من قبل الادعاء فى قضية (يوليسيس) بهدف المقارنة. وأغلب الظن أن سام كولمان هو الذى تولى إعداد هذه المذكرة. ولا يستبعد أن

يكون أطلس قد اشترك فى إعدادها.

وقبل القيام بفحص المذكرة التى كتبها أطلس يجدر بنا أن نقول إن كـلا من المحـامـيين إرنست وليندى زودا كـولمان وأطلس بـالمادة التـى يزمعان استخدامها فى الدفاع عن رواية «يوليسيس» (بما فى ذلك الالتماس الذى قدمه ليندى) بغية إقناع الحكومة بصرف النظر عن محاكمة الرواية، غير أن كولمان وأطلس احـتفظا بهذه المادة حتى وقت متأخر، الأمر الذى جعل إرنست وليندى يشكان فى سوء نيتـهما وتعمدهما تعطيل تسليم هذه المادة إلى القاضى وولسى. وبدأت الشكوك تساور ليندى أكثر وأكثر عندما طلب من المحـامى العام أطلس إرجاع الوثائق إليه فوجد أن أطلس يتهرب من إرجاعها. وبرر أطلس هذا التأخير بقوله إنه أراد فيما يبدو الاحتفاظ بالمادة بسبب احتياجه لها فى إعداد مذكرته. ولكن ليندى الذى كان يشك فى نـوايا أطـلس رأى أن هذا الرجل ليس بحـاجـة إلى أى من المواد التـى زوده بهـا واعتـقد أن مماطلته ترجع إلى رغبتـه فى أن تكسب الحكومـة القضية التى رفعتها ضد الرواية.

وهناك تفسير آخر لمماطلة أطلس فى إرجاع الوثائق إلى أصحابها وهى أن إحـجامه عن ردها يرجع إلى أن الحكومة لم تكن جادة تماما فى رغبتها فى فرض الحظر على الرواية.

ويتضح من مطالعة المذكرة التى سطرها أطلس أنه استعان استعانة كبيرة بالمادة النقدية التى جمعها إرنست وليندى للدفاع عن الرواية، وتبدأ مذكرة أطلس باستشهاده برأى لاربود القائل بأن شهرة جويس فى عالم الأدب تعادل شهرة كل من فرويد وأينشتين فى مـجال العلم. واتبع أطلس

نفس المنهج الذى اتبعه لاربود فسطر لمحة قصيرة عن سيرة حياة جويس ثم انتقل بعد ذلك إلى مناقشة أعماله التالية «موسيقى الحجرة» و«أهل دبلن» و«صورة الفنان فى شبابه». وبعدئذ عرج أطلس إلى الحديث عن رواية «يوليسيس» مبديا حرصه على شرح وجهة نظر الحكومة غير المتحيزة ضد الرواية: نحن نعامل هذه الرواية بتبجيل عظيم، وندرك أن مادة الكتاب ترسم صورة مصغرة بصياغة أدبية أشد ما تكون حساسية وبطريقة علمية للغاية. ونحن نعترف بأن الرواية تستحق الثناء بسبب أسلوبها الجديد والصادم... ونحن ندرك الطريقة المتميزة التى كتبت بها هذه الرواية... وأخيرا نحن ندرك أن هذا الضرب من الكتابة هو الأدب والشعر. وبعد أن أوضح المحامى العام أطلس أن الحكومة ليست متحيزة ضد رواية «يوليسيس» كان المتوقع منه عرض اعتراضات الحكومة على الرواية . ولكنه بدلا من ذلك أخذ يصف أحداث «يوليسيس» بطريقة توحى بأنه لا يوجد أساس (أو يوجد أساس واه) لاتهام الحكومة للرواية بالبذاءة، وقد فعل هذا عن طريق تحاشى ذكر الفقرات البذيئة المعترض عليها:

«يعانى بلوم أيضا المتاعب فهو متزوج من امرأة ايرلندية ولديه أسباب تجعله يعتقد... بل تجعله على يقين من أنها امرأة زانية تخونه مع آخرين. ويكابد بلوم حزنا شخصيا بسبب فقد أحد أطفاله. ثم ينتقل إلى دبلن ليعيش كما يعيش كل الناس فيذهب إلى عمله ويعد فطوره بنفسه رغم زواجه المثير لسخطه ويحضر المآتم ويذهب إلى الشاطئ...»

وفى ملخص الرواية الذى أعده أطلس نجده يتجنب الإشارة إلى ممارسة بلوم للعادة السرية على الشاطئ... أى أنه أغفل ذكر هذه الواقعة

التى كانت السبب فى حظر رواية (يوليسيس) عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ .

تعمد أطلس عند الاستشهاد بالرواية ألا يذكر المقتطفات الدالة على بذاءتها، بل مال إلى توضيح ما تحتويه من شعر نادر مثل الفقرة الجميلة التى اقتطفها من الجزء المسمى «تليماكوس». وهكذا نرى أن المذكرة التى سطرها أطلس هى تقييم أدبى بحت للرواية لا يعنى مطلقا بالأثر الأخلاقى الذى تنطوى عليه، الأمر الذى يجعل من الجلى أن أطلس لا ينوى إقناع أحد بضرورة حظر «يوليسيس»، بالعكس فهو يوحى بإطرائه على الرواية بأنه ضمنيا لا يريد من الحكومة تدميرها أو مصادرتها.

ويرجع إعجاب أطلس الشديد بالرواية إلى عام ١٩١٨ حين كان يافعا فى الحادية عشرة من عمره يعشق اللغات والفنون والآداب، الأمر الذى دفعه إلى الاختلاط بالفنانين الذين يعيشون فى قرية جرينتش بصحبة جوزيف ت. شبلى رئيس نقابة نقاد الدراما فى نيويورك الذى كان يعمل بالتدريس فى المدرسة العليا التى تلقى فيها أطلس تعليمه. وأيضا كان أطلس يعرف مجلة «الريفيو الصغيرة» عن كثب. وأغلب الظن أنه تابع مقاضاة المجلة بسبب نشرها بعض حلقات رواية «يوليسيس». وأثناء عقد العشرينيات عاش أطلس فى شارع جاى الكائن فى هذه القرية على مقربة من مكتب مجلة الريفيو الصغيرة، وبعد تخرجه من مدرسة فوردهام للحقوق فى عام ١٩٢٤ مارس مهنة المحاماة واشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية فى سيتى كوليدج، وكناقد أدبى فى صحيفة نسر بروكلين اليومية حيث قابل شخصا يدعى دى هيرش مارجو لايز الذى سافر إلى باريس ومن هناك ساعده على الحصول على نسخة من رواية «يوليسيس»

(طبعة شكسبير وفرقته) . وبحلول الوقت الذى انخرط أثناءه فى القضية التى رفعتها الحكومة ضد طبعة باريس صار إعجابه بأدب جويس عظيما . وقد هبطت عليه رواية «يوليسيس» كما هبطت على الكثير من أفراد جيله كقوة محررة ووحى فى السماء. وبسبب شدة إعجابه بكتابات جويس كان من العسير على أى أحد أن يتصور أنه سوف يحث المحكمة على مصادرة «يوليسيس» وتدميرها .

غير أن المذكرة الحكومية الثانية التى تحمل عنوان تحليل الكتب التى قدمها المدعى فى قضية «يوليسيس» بهدف المقارنة اتخذت موقفا من هذه الرواية أقل تعاطفا ولكنه أبعد ما يكون عن العداء. ومن المعتقد أن كاتبها الأساسى هو كولمان وليس أطلس. وبخلاف المذكرة التى كتبها أطلس نجد أن كولمان يعترف بسلامة المحاجة الأخلاقية عند مناقشة الأدب. فهو عند مناقشة الجزء الذى يحمل عنوان مادلين وهى سيرة عاهرة الذاتية، كتب كولمان يقول عن هذا الجزء إنه يعوق ارتكاب الشرور والمعاصى. وفى تقييمه لقرار المحكمة بشأن رواية فدان الله الصغير يذهب إلى أن أى عمل لا يحكم عليه بالبذاءة ككل لا يمكن أن يكون بذيئا بسبب وجود بعض الفقرات البذيئة فيه. ومن المهم أن نعرف أن كولمان أكد أن بعض فقرات رواية «يوليسيس» تتسم فى واقع الأمر بالبذاءة. والجدير بالذكر أنه تناول رواية مدموازيل دى موبان لجوتييه بقوله: هذا الكتاب لا يحتوى على ما تحتويه رواية «يوليسيس» من بذاءات فهى تخلو من كلمات ومناظر العهر والانحلال. ويختتم كولمان ما كتبه فى هذا الشأن بوصف البذاءات بطريقة مخففة وملطفة للغاية، فهى كلمات - على حد تعبيره -

لا يصبح ذكرها فى حضرة المجتمع المهذب. يقول كولمان: يتعين علينا أن نتعامل مع رواية «يوليسيس» على أنها كتاب جاد للغاية ولكنه ملىء فى كل صفحاته بتعبيرات وإشارات وكليشيهات ومواقف لا يمكن ذكرها حتى يومنا الراهن فى أى مجتمع يسمى نفسه مجتمعا مهذبا، وبالتأكيد فى أى مجتمع مختلط من النساء والرجال مهما بلغت حرية هذا المجتمع المختلط.

وتشير مذكرتا أطلس وكولمان بوضوح (واللتين يجدر بالذكر أنهما لم يتم تقديمهما إلى المحكمة) إلى أن الحكومة لم تظهر تحمسا لحظر رواية «يوليسيس»، وهو الأمر الذى يتضح لنا بجلاء من رد فعل كولمان للقرار الذى اتخذه القاضى وولسى: أشعر تماما بما كان القاضى وولسى يشعر به نحو الكتاب، وأعتقد أن النتيجة صحية، وإنى أرحب بقرار هذا القاضى وأشعر بالرضا عنه... لماذا إذن رفضت الحكومة صرف النظر عن توجيه تهمة البذاءة إلى الرواية؟! وطبقا لما يقوله كولمان يرجع السبب فى رفعها الدعوى ضد الرواية إلى كثرة الانتقادات والتقريظ الشديد لها. ومن الناحية الأخرى شعرت الحكومة بضرورة إصدار حكم نهائى فى ذلك الوقت بشأن بذاءة أو عدم بذاءة الكتاب، وتساعدنا مثل هذه التحقيقات على فهم السبب الذى جعل المحامى العام الأمريكى لا يكلف نفسه عناء صياغة محاجة متماسكة تدعو إلى حظر الرواية واكتفى بدلا من ذلك بأن يجعل القضية تكاد تقوم تماما على الفقرات المسيئة الواردة فى مذكرة كولمان. وهذه الفقرات تذيل نسخة «يوليسيس» المصادرة التى سلمت إلى القاضى وولسى.

وتكشف هذه النسخة المصادرة عن أن مكتب المحامى العام الأمريكى اعتبر أن عدد الفقرات البذيئة بمقتضى معايير عام ١٩٣٢ / ١٩٣٣ تصل إلى

٢٦٠ فقرة موزعة على أكثر من ١٩٨ صفحة وتكون تقريبا ٢٥ ٪ من عدد صفحات طبعة باريس التى صودرت عام ١٩٢٢, وأغلب هذه الصفحات البذيئة موجودة فى الحكايات الأخيرة من الرواية كما يتضح لنا فى البيان التالى:

الحكاية	عدد الفقرات
١- تليماكوس	صفر
٢- نسطور	صفر
٣- بروتيوس	صفر
٤- كاليبسو	صفر
٥- أكلة اللوتس	١
٦- الجحيم	صفر
٧- أيولوس	صفر
٨- الليستريجونيان	٥
٩- سكيلا وكاريوبيديس	٧
١٠- الصخور الجائلة	صفر
١١- جنيات البحر (الحوريات)	صفر
١٢- سايكلوس	٢٥
١٣- نوسيكا	١٧
١٤- ثيران الشمس	٢٩
١٥- سيرس	٨٩
١٦- ايوميوس	١٢
١٧- إيثاكا	١٩
١٨- بنيلوبى	٥٦
المجموع	٢٦٠

ومن المفارقة أن عدد الفقرات المسيئة التى استندت إليها الحكومة فى قضيتها ضد رواية «يوليسيس» توضح متانة الأسس التى أقامت عليها اعتراضها على الرواية. وعلى العكس من هذا تماما نرى أن مذكرة كولمان تشير إلى أن هذا الأساس واه وضعيف. وكان كولمان أشد ما يكون اقتناعا بأنه لا يمكنه تحت أى ظروف قراءة المقتطفات المسيئة فى حضرة النساء. ولكن امرأة واحدة حضرت إلى قاعة المحكمة مما أدى إلى تدمير وجهة نظر الحكومة بالكامل. وطبقا لما قاله المحامى إرنست كان ذلك بالضبط ما حدث. وقبل بدء الجلسة أسر كولمان إلى إرنست باعتقاده أن الحكومة سوف تخسر القضية. وعندما طلب منه إرنست إيضاحا رد عليه كولمان بقوله: إن الطريق الوحيد لكسب القضية يتمثل فى الإشارة إلى عدد الألفاظ المسيئة التى يستخدمها جويس فهذا قمين بأن يصدم القاضى ويدفعه إلى حظر الكتاب، فسأله إرنست: لماذا؟ فأجابه كولمان بقوله: لوجود سيدة فى قاعة المحكمة وعندما تبين إرنست أن هذه السيدة الموجودة فى قاعة المحكمة هى زوجته طمأن كولمان بقوله: إنها صحفية سابقة وهى الآن تعمل بالتدريس. وقد قرأت كل هذه الألفاظ البذيئة على جدران المراحيض... كما أنها رأتها كشخبطة على أرصفة الشوارع بواسطة الأطفال الذين استمتعوا بها لأنها تنتهك المحرمات. وعلى الرغم من تأكيدات إرنست وطمأنته فقد أصر كولمان على أنه لن يستطيع النطق بهذه الكلمات البذيئة فى مجتمع مختلط من الرجال والنساء.

عقدت جلسة الاستماع يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ فى قاعة صغيرة بشكل غير رسمى. وكان القاضى وولسى يدخن التبغ ويتحدث بحرية من

منصة القضاء. ويتكلم من آن لآخر عن صعوبة موقفه البالغة... ذلك الموقف الذى اقتضى منه إصدار الحكم على كتاب ظل لمدة عشرة أعوام يثير أقذع إدانة وأروع ثناء من قطاع المتعلمين. وقد حضرت الجلسة السيدة مارجريت زوجة إرنست والمحررون بينيت سيرف ودونالد كلويفر وساكس كوفنر إلى جانب ويت بيرنيت محرر القصة. وكان بين الحاضرين جون س. سمنر سكرتير جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة المسئول عن حظر رواية «يوليسيس» ردحا طويلا من الزمن.

كان سام كولمان أول المتحدثين بوصفه ممثلا للادعاء وطلب من المحكمة ألا تعتبره رقيبا متزمتا لأنه رأى أن رواية «يوليسيس» بذيئة ومن ثم لا ينبغى السماح ببيعها أو تداولها فى الولايات المتحدة. ومن المؤسف أن تفاصيل كلمة كولمان الافتتاحية اندثرت. ولكن هذه الكلمة تضمنت الأساس العلنى العام الذى قامت عليه القضية التى رفعتها الحكومة ضد رواية «يوليسيس». ومن ناحيته اعترف القاضى وولسى بوجود الإثارة الجنسية التى تنطوى عليها بعض الحكايات وخاصة الأحلام الواردة فى نهاية الرواية وباستخدام الكلمات التى لا يصح التفوه بها فى مجتمع مختلط من الرجال والنساء. وأيضا اعترف وولسى بشعوره بالانزعاج عقب قراءة بعض أجزاء الرواية وخاصة مونولوج مولى، فهو يقول:

ليس من السهل الحكم فى هذه القضية... أعتقد أن جميع الأشياء يجب تداولها وعرضها فى الأسواق. وشعورى الخاص يناهض الرقابة، وأعرف أن تاجر السوق السوداء سوف ينشط بمجرد فرض الحظر على أى شئ. والناس يتطلعون إلى الحصول على أى شئ محظور بالمخالفة

للقانون. وسوف تكون القنوات غير الشرعية هى الوحيدة الرابحة فى هذه الحالة... ورغم ذلك فهناك ذلك المونولوج المنشور فى الفصل الأخير من الرواية. ولست أعرف ما ينبغى فعله بشأن هذا الفصل غير المضى فى هذه القضية.

ونظرا لأن كولمان رفض قراءة الفقرات البذيئة الواردة فى رواية «يوليسيس» على الحاضرين فى المحكمة، فإنه لم يجد أمامه الكثير الذى يناقشه فى هذه القضية. ولكنه على أية حال ذهب إلى أن «يوليسيس» رواية بذيئة. والجدير بالذكر أنه كان مقلا فى كلامه عن القضية، وهو الأمر الذى يتجلى من رد فعله حين سأله القاضى وولسى عن تعريفه للبذاءة. وقبل أن يتمكن كولمان من الرد على القاضى اقترح القاضى التعريف التالى: يمكن القول ببذاءة أى شىء إذا كان الهدف الأصلى منه إثارة الشهوات الجنسية.. ومن ناحيته وافق كولمان ضمنيا على هذا التعريف بقوله:-

«لست أعتقد أن البذاءة تقتصر بالضرورة على إثارة الشهوات الجنسية. أفهم أن الناس يطالعون أشياء لا تثيرهم على هذا النحو ولكنها أشياء تعتبر بذيئة على الرغم من هذا. وأود أن أقول إن الشىء يتصف بالبذاءة تبعا للغة المستخدمة وكذلك تبعا للأثر الذى يتركه فى نفس القارئ العادى. ولهذا أعتقد أن هناك العديد من الأسباب التى تجعلنا نعتبر (يوليسيس) رواية بذيئة».

هذا ما تناقلته الصحافة حول مجادلات كولمان الشفوية فى ساحة القضاء. وإذا كان ما تناقلته الصحف صحيحا فإنه يمكن تلخيص المبادئ

الأساسية فى قضيته المرفوعة باسم قضية ريجينا ضد هيكلين التى سبق لنا الإشارة إليها. ثانيا: إن نية المؤلف (سواء كانت أدبية أم لا) لا تلغى أو تنفى احتمالات بذاءة الكتاب المؤلف. لا يجرؤ أحد على الهجوم على قيمة كتاب «يوليسيس» الأدبية... ولكن هذا لا يعنى أن الكتاب يخلو من البذاءة وهكذا يتضح أن كولمان اعترض على كثير من المحاجات التى ساقها إرنست. وهو على أية حال لم يتشكك فى سلامة آراء المشتغلين بالأدب. ولكنه ألمح أن هذه الآراء ربما تكون أكثر قبولا للتأويل والتفسير مما أوضح إرنست. غير أنه لم ينكر أن الشخص العادى هو المعيار السليم للحكم على بذاءة أية مادة، وليس الشاب الذى يسهل إثارته من الناحية الجنسية. وتدل الدلائل على كل حال على أن المحاجات التى ساقها كولمان لم تكن على درجة كبيرة من القدرة على الإقناع.

وبسبب رفض كولمان قراءة الألفاظ البذيئة الواردة فى «يوليسيس» فقد كان من السهل على المحامى إرنست أن يأخذ زمام المبادرة. فكانت أول خطوة خطاها هى الوقوف عند كل كلمة إنجليزية بذيئة واردة فى الرواية. يقول إرنست:

عندما وصلت إلى كلمة Fuck البذيئة شرحت أنه من الجائز أنها إحدى مشتقات فعل plant (يزرع) فى الاستخدامات الزراعية فى اللغة الإنجليزية. مثل القول بأن المزارع (يولج) Fuck البذرة فى التربة. وقلت للقاضى إنى أحب هذه الكلمة. ولكنى لا أستخدمها فى الصالونات لأنها تنفر الناس منى، ولكن الكلمة تتمتع بالقوة والصدق فى ذاتها. وفيما يلى الحوار الذى دار بين المحامى إرنست والقاضى وولسى فى هذا الشأن:

«فى الحقيقة يا سيادة القاضى هذه الكلمة تتصف بقدر من الأمانة يوق العبارات التى يستخدمها المؤلفون المعاصرون للتعبير عن نفس التجربة.

عندئذ سأله القاضى: اعطنى مثلا يا مستر إرنست.

مثل تعبير ناما سويا.

وهنا ابتسم القاضى قائلا: فى العادة لا يدل هذا التعبير على المعنى المراد.

فى تلك اللحظة أحس المحامى إرنست أنه نجح فى كسب نصف قضيته. ويجدر بالذكر أن معالجة المحامى إرنست لكلمة Fuck لا تعتمد على سياقها الأدبى... بل إن هذه الكلمة فى ذاتها لا توحى بالبذاءة»

وهكذا حاول إرنست الدفاع عن رواية «يوليسيس» ضد تهمة البذاءة عن طريق تنقية أو تطهير لغة الجنس واستبعاد أية مشكلات قد تعلق بها.

وقد سبق لى أن شرحت فى كتابى د. هـ. لورانس وهنرى ميلر أمام المحاكم (٢٠٠٩) أن هذا ما فعله د.هـ. لورانس على وجه التحديد عندما استخدم كلمة Fuck فى روايته المعروفة عشيق الليدى شاترلى. أما النقطة الرئيسة الثانية التى اتبعها ولسى أثناء مناقشاته الشفوية مع إرنست فهى حرص هذا القاضى على التأكد من أن إرنست طالع جميع أجزاء «يوليسيس» وليس بعضاً منها.

وكان أخشى ما يخشاه المحامى إرنست أن يبين القاضى أنه على استعداد لإدانة الرواية بحجة أن حظر كتاب بهذا القدر من الطول والجفاف والملل لن يتسبب فى إلحاق الضرر أو الأذى بأحد. ولعل أكثر ما سببه

تساؤل وولسى من قلق وانزعاج فى نفس المحامى إرنست هو أن يذهب القاضى إلى أنه طالما أنه يندر أن نجد قارئا قادرا على مطالعة الرواية من أولها إلى آخرها فليست هناك جدوى من طلب المحامى بضرورة الحكم على الرواية ككل. وفيما يلى نورد الحديث الذى دار بين الدفاع والقاضى وولسى فى هذا الشأن:

– نعم يا سيادة القاضى. حاولت منذ عشرة أعوام قراءة رواية «يوليسيس» حتى نهايتها ولكنى لم أستطع. وهذا العام اضطررت إلى قراءتها استعدادا للمحاكمة. وفى أثناء قراءتها دعتنى الكنيسة التوحيدية فى نانتوكت للحديث عن قانون البنوك الجديد وإعادة فتح البنوك بعد الإجازة:

– ما علاقة هذا بسؤالى... تساءل القاضى وولسى!

– حسنا. لقد تحدثت أمام أربعمائة شخص. ورغم تركيزى على حديثى فقد اتضح لى بعد الانتهاء منه أننى كنت فى ذات الوقت أفكر فى النوافذ الطويلة العالية القريبة من السقف على الجانبين، كما أفكر فى الساعة والنسر فى المؤخرة والقبة المطلة فوقى والسيدة العجوز البيضاء الشعر الجالسة فى الصف الأمامى والطفل الجالس فى الصف السادس وأشياء أخرى لا تحصى ولا تعد من هذا القبيل.

– قلت: يا سيادة القاضى... إن كل ما جال بخاطرى يمثل رواية «يوليسيس». فقد عدت إلى قراءة هذه الرواية من جديد، وأنا أحمل تقديرا جديدا للتكنيك الذى استحدثه جيمس جويس فى سرده الروائى، ذلك التكنيك المعروف باسم تيار الشعور. والآن يا سيادة القاضى بينما

أنا أترافع أمامك لكسب هذه القضية ظننت أننى أركز على شىء واحد هو كتاب «يوليسيس». ولكنى أقول لك بصراحة أثناء مرافعتى أمامك كنت أفكر أيضا فى الخاتم المعلق فى رباط عنقك، وكيف أن الروب الذى تلبسه ليس مضبوطا على مقاس كتفيك. فضلا عن أنى فكرت فى صورة جورج واشنطن التى تعلو المنصة التى تجلس عليها.

- وابتسم القاضى قائلا: لقد أزعجنى الجزء الأخير من الرواية. ولكنى الآن أفهم أجزاء كثيرة غابت عن بالى وخاننى استيعابها. اننى استمعت بكل ما فى مقدورى من تركيز. ولكن يجب على أن أعترف إننى كنت أثناء استماعى لك أفكر فى الكرسى الأبيض الموجود خلفك.

قلت: يا سيادة القاضى هذه هى رواية «يوليسيس». وهكذا جاء رد إرنست عن سؤال القاضى وولسى حول مدى القدرة على الفهم اللازم لاستيعاب «يوليسيس» على نحو لماح وذكى... وهى أنه لا سبيل إلى فهم الرواية إلا عن طريق فهم تكنيك تيار الشعور الذى يستخدمه جويس، وبدا من استجابة القاضى لإرنست أنه يوافق على سلامة رأى المحامى إرنست إلى حد كبير.

وبعد أن استمع القاضى وولسى إلى وجهة نظر الادعاء والدفاع اعتذر لأنه أخذ وقتا طويلا للنظر فى القضية. وتبين له أن الدفاع يشعر بالقلق والانزعاج أثناء انتظار صدور الحكم. ولكن القاضى عبر عن حاجته إلى المزيد من الوقت للبت فى القضية. وفيما هو يتأهب للكلام قام إرنست بتزويده بمذكرة أخرى كان القاضى وولسى قد طلبها منه أثناء المرافعة. ووصف إرنست التوتر والترقب الذى ران على المحكمة فكتب يقول:

... كان نص رواية «يوليسيس» الدليل الوحيد الذى قدم إلى هيئة المحكمة... ترقب يشبه صدور الحكم بإعدام متهم... ومثلت الرواية أمام المحكمة كمتهم قابع فى قفص الاتهام. وناضلت الرواية وكأنها تريد الحفاظ على حياتها لأن إدانتها تعنى تدميرها عن طريق المصادرة مثلا.. وهو شىء لا يقل عن تدمير شخص بإعدامه عن طريق الكرسى الكهربائى.

وهكذا أصبح مصير رواية «يوليسيس» فى يد شخص واحد هو القاضى وولسى.

* * *

فى يوم ٦ ديسمبر ١٩٣٣ أصدر القاضى وولسى حكمه بشأن رواية «يوليسيس» ومفاده أن هذه الرواية ليست بذيئة من الناحية القانونية. ومن ثم يسمح بتداولها فى الولايات المتحدة. وبذلك أعطى هذا القاضى أمريكا الشرف فى أن تكون أول بلد ناطق باللغة الإنجليزية يرفع الحظر المفروض على الرواية. وبهذا تكون أمريكا قد كفرت عن خطأها عندما حظرت الرواية للعديد من السنوات. وأدى السماح بتداولها فى الأرض الأمريكية إلى قطع الطريق على الناشرين اللصوص فى أوربا ممن دأبوا على السطو على الرواية وتهريبها عبر مصلحة الجمارك الأمريكية منذ عام ١٩٢٢ وتحرير الرواية من قيود الحظر منذ أن بدأت مجلة الريفيو الصغيرة فى نشرها مسلسلة. وهكذا بدأت الرواية تشق طريقها إلى التبجيل والاحترام.

والجدير بالذكر أن محاكمة الرواية هذه المرة اعتمدت على طبعة دار نشر راندوم هاوس وبودلى. وقد اعتبر المشتغلون بالفنون والآداب رفع

الحظر عن الرواية عملا مجيدا وعلامة فارقة على طريق الحرية الأدبية والفكرية. ولم يتنبه عدد كبير من المثقفين إلى أن دفاع المحامى إرنست عن الرواية اعتمد على ما يمكن تسميته بالنظرية الجمالية فى الأدب.

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الحكم ببراءة الرواية يشير إلى ضرورة توافر معايير معينة. فالحكم ببذاءتها من الناحية القانونية يقتضى منها الميل إلى إثارة نوازع الجنس أو إثارة الأفكار الجنسية الدنسة والشهوانية. وبهذا يكون القاضى وولسى قد ساوى بين البذاءة والأدب المكشوف. ورغم أن جلوريا شتاينر وآخرين جادلوا بأن البذاءة ليست مرادفة للأدب المكشوف، فإن الحكم الذى أصدره القاضى وولسى اعتبر أن البذاءة ترادف الأدب المكشوف.

وبتطبيق هذه المبادئ يكون وولسى قد جسد ما يسميه الناقد ليسلى فيلدر «أكاذيب تنبع من النوايا الحسنة». ولكن هذا لا ينطوى على أى طعن فى سلامة حكم وولسى بعدم بذاءة «يوليسيس» من الناحية القانونية. علما بأن محكمة الاستئناف أيدت عام ١٩٣٤ الحكم الذى أصدره وولسى بتبرئة الرواية.

وقد استند وولسى فى حكمه إلى ضرورة الرجوع إلى الكتب النقدية التى تتناول العمل الأدبى موضوع الخلاف. وهذا ركن أساسى لما شاهدناه فى دفاع إرنست عن الرواية. يقول وولسى فى هذا الشأن:

قرأت رواية «يوليسيس» كاملة كما قرأت الفقرات موضع الشكوى بوجه خاص عدة مرات. وفى حقيقة الأمر كرست وقت فراغى على مدى أسابيع عديدة للوصول إلى القرار الذى اقتضى واجبى أن أفعله... إن

رواية «يوليسيس» ليست كتابا سهلا للقراءة والفهم. ومع ذلك فقد قامت كتابات كثيرة بمعالجتها. وحتى يستطيع المرء الاقتراب من الكتاب على نحو سليم فإنه من المستحسن قراءة عدد من الكتب الأخرى التى تعالجها.

وهكذا كابد القاضى وولسى فى عطلته مشقة مطالعة «يوليسيس» «حيث إن قراءة فصول هذه الرواية ضرورية لى كى أفهم الرواية على نحو أكثر اكتمالا وأرفع فى مستواه الثقافى بكل ما تضمنه النص الروائى الذى ملأه جويس بالإشارات الكلاسيكية والإشارات إلى الأساطير».

ويجدر بالذكر أن الكتب النقدية التى طالعها القاضى وولسى شجعته على تقييم رواية «يوليسيس» بطريقة تستبعد البذاءة وتركز على أهمية ما تستحدثه فى الشكل الأدبى وعلى مقارنتها بالأعمال الأدبية العظيمة السابقة عليها. فقد رأى الناقد فاليرى لاربود مثلا أن هناك أوجه شبه بين جويس وسويفت وستيرن وفيلدنج وهوميروس. وذهب ت.س. إليوت إلى قرب هذه الرواية الشديد من أوديسا هوميروس، فى حين أن الناقد ستيوارت جلبرت شبه الرواية بأعمال باتر وفلوبيرت وتولستوى التى تركت أثرها الواضح فى جيمس جويس، كما أن ت.س. إليوت وضع «يوليسيس» فى مصاف أعمال أوفيد وشكسبير وإبسن وبروست. غير أن الناقد ليسلى فيلدر أكد أن رواية «يوليسيس» تأثرت بشكل ملحوظ بالأدب الفاضح أو الأدب المكشوف. يقول فيلدر فى هذا الشأن:

لذلك لا يجب علينا قراءة الرواية فى السياق الحديث الذى ابتدعه كل من توماس مان وبروست وإليوت وباوند أو فى سياق كتب الأساطير التى استقى منها جويس إشاراته... بل يجب قراءتها فى إطار الكتب

والمجلدات التى قلب فيها بلوم وفى مخزن الكتب وأيضا فى حكاية «الصخور الجوالة» مثل الفظاعات التى كشفت عنها «ماريا مونك» و«رائعة أرسطو» و«حكايات من الجيتو» التى ألفها ليوبولد فون ساشر ماسوك والطغاة أصحاب الوجوه المليحة تأليف جيمس لوفيرش و«العقيق فخر الخاتم» وبوجه خاص «مذاق الخطيئة اللذيذ» تأليف بول دى كوك.

ويذهب ريتشارد براون إلى رأى مفاده أن جويس أظهر اهتماما واضحا بمطالعة الأدب المكشوف. ويقول فيلدر إن جويس قرأ «اعترافات ماريا مونك الفظيعة» ور«ائعة أرسطو» و«حكايات من الجيتو» تأليف ليوبولد ساكر ماسوك، إلى جانب رواية «فانى هيل» لجون كليفلاند وترجمة باللغة الإنجليزية لكتاب الكونت دى ميرابو «الستارة المرفوعة». فضلا عن أنه قرأ كتابات بذيئة أخرى مثل «تاريخ الإفراط» و«أفعال شهوانية» و«القانون الخاص بالعذرية المكسوة» تأليف أدريان بيفرلاند وهو أحد الكتب التى حظرتها مصلحة الجمارك الأمريكية عام ١٩٢٨ مع رواية «يوليسيس».

وتتضمن رواية «يوليسيس» إشارات إلى بعض المطبوعات البذيئة القادمة من باريس «مثل البنطلون الأبيض والكلسون الأحمر». وفى الرواية تظهر مولى شغفها بقراءة الكتب الفاضحة مثل «العقيق فخر الخاتم» و«لذات الجنس» تأليف بول دى كوك، وكذلك يظهر زوجها بلوم اهتماما مماثلا بمطالعة الأدب المكشوف فهو أيضا يطالع المجلات والصور الفاضحة. وقد تنبه تجار الأدب المكشوف منذ وقت باكر إلى ذلك فسارعوا بالسطو على الرواية ونشرها سراً دون إذن من مؤلفها. وعندما تولت مطبوعات كوليكتور إصدار طبعة من «يوليسيس» فى كاليفورنيا عام ١٩٦٧ حرص

الناشر على الإعلان عن الكتب الفاضحة التالية ضمن مطبوعاته فى نهاية النسخة المنشورة: «الجيبة» و«بابل سان فرانسيسكو» و«الشفاه القاسية» و«سوبر ويك فى أحسن وأسوأ أحواله».

لقد سبق أن رأينا ليندى يؤكد عدم وجود أى تشابه بين «يوليسيس» والأعمال الأخرى المصادرة فى مينابوليس. وكذلك ذهب المحامى إرنست إلى نفس هذا الرأى فقد أوضح لنا فى مذكرته المكتوبة أن الأدب والبذاءة لا يجتمعان فى أى عمل أدبى أو فنى. كانت تلك استراتيجية إرنست فى الدفاع عن «يوليسيس»، ولكن البعض يعتقد أنه من الممكن لهما أن يجتمعا فى عمل واحد كما هى الحال مع روايتى «أفروديت» و«فان هيل»، والدليل على ذلك أن رواية «يوليسيس» أغرت كما شاهدنا بعض تجار الأدب المكشوف بنشرها.

ولكن القاضى وولسى على أية حال آثر أن يتبنى وجهة نظر المحامى إرنست التى تؤكد وجود فرق واضح بين الأدب الحق والبذاءة. ومن ثم حكم هذا القاضى بتبرئة الرواية على أساس سلامة نوايا مؤلفها. قال وولسى: لست أشم فى أى مكان الرواية رائحة أى شهوانية مقصودة. ولهذا السبب أرى أن الرواية تخلو من البذاءة. ثم أكد هذا القاضى أن دافع جويس وراء تأليف روايته دافع فنى بحت. يقول القاضى وولسى فى هذا الشأن: كان جويس يريد إجراء تجربة جادة فى استحداث نوع من الأدب الجديد. وخلاصة القول إن القاضى وولسى - على حد قول الناقد ليسلى فيلدر _ انتهى إلى حكم يعكس رأيا رئيسا لا يهتز أو يتزعزع فى الحداثة الأدبية مفاده أن الأدب الحق (وخاصة الأدب الجديد والتجريبى والجاد) لا

يمكن أن يكون أدبا فاضحا، كما أن الأدب الفاضح لا يمكن أن يكون أدبا جادا. وقد حرص القاضى وولسى على ضرورة استجلاء نية المؤلف عند الحكم على أعماله، وإذا ثبت من فحص نوايا أى مؤلف أنها تسعى إلى استغلال البذاءة فلابد من مصادرتها. وحسبما يرى وولسى لا يمكن تبين نية المؤلف بدون الرجوع إلى الكتابات والآراء النقدية التى تحظى بالاحترام. واعترف وولسى أن قراءة هذه الأعمال النقدية كانت عملا شاقا اضطلع به. وهو لم يدخر وسعا أو جهدا فى الاطلاع على آراء النقاد التى تكشف عن نوايا المؤلف فى تأليف كتابه.

ونحن نستدل على اهتمام القاضى وولسى باستقصاء نية جيمس جويس فى تأليف رواية «يوليسيس» من أنه أفرد لهذا فى حكمه الصادر على الرواية ما يقرب من صفحتين كاملتين من مجموع صفحات الحكم الواقع فى خمس صفحات. وخلاصة القول إن نية الفنان بطبيعة الحال عند تأليف أى عمل أدبى لا تأخذ الاعتبارات الأخلاقية أو غير الأخلاقية أو السياسية أو الدينية أو غير الدينية فى الحسبان. بل إن نيته تتجه إلى العناصر الجمالية فى العمل الأدبى مثلما يعتقد نورثوب فراى. ويرى بعض النقاد أن هدف جويس من تأليف كتبه هو رغبته _ إلى جانب التجربة الجمالية – فى فضح بعض المزاعم والأكاذيب الموجودة فى الحياة. وهو نفس دافع جورج أورويل من الكتابة.

ولابد من الاعتراف بأن أحد أهداف جويس الرئيسة فى التأليف هو مناقشة الجنس بصراحة وتحطيم المواضعات الاجتماعية الزائفة الخاصة به. وهذا هو السبب فى احتواء كتاباته على عناصر بذيئة. ولكن نيته

المبيتة فى تحطيم المواضعات الجنسية الزائفة لا تتعارض بأى حال من الأحوال مع نوازعه الجمالية. ويعترف القاضى وولسى بأن نية جويس الفنية تتضمن بعدا أخلاقيا فهو يمتدح إخلاص وأمانة جويس ومجهوده المخلص فى تصوير كيف تعمل عقول شخصياته الروائية تصويرا دقيقا. ولكن وولسى يذهب إلى أن أمانة جويس أمانة جمالية أكثر من كونها فضيلة أخلاقية. فأمانة الفنان فى رأى القاضى وولسى تصبح أخلاقية أو غير أخلاقية طبقا لمدى أمانته أو عدم أمانته فى اتباع التكنيك الذى يختاره لنفسه. فالرأى عند وولسى أن الفنان الذى يظل مخلصا ووفيا للتكنيك الذى يتبعه لا يمكنه أن يخطئ أو يضل السبيل. والجدير بالذكر أنه يبدو بوضوح أن وولسى يعترف فى نهاية نقاشه بأن العمل الأدبى يمكن أن يتضمن هدفا فنيا وفقا لنواياه، ويكون فى ذات الوقت بذيئا فى أثره، أى أن وولسى يسعى إلى تحديد أثر الرواية بغض النظر عن نية مؤلفها. ولكنه سعى لا يفضى إلى أية نتيجة حيث أنه يفترض أن العمل الأدبى لا يمكن أن يكون بذيئا طالما كانت نية مؤلفه جمالية.

ويستطرد وولسى قائلا:

إن الاستمتاع أو عدم الاستمتاع بالتكنيك الروائى الذى يستخدمه جويس مسألة ذوق وليس هناك جدوى من النقاش فيها، أو الاختلاف عليها. ويبدو لى أنه يكاد يكون من العبث إخضاع هذا التكنيك لمعايير التكنيكات الأخرى.

ولهذا فإنى أرى أن «يوليسيس» رواية تتسم بالأمانة والإخلاص. وأعتقد أن الدافع العقلانى القابع وراء تأليف هذه الرواية يجعل النقد

الموجه إليها غير ذى موضوع بالمرة.

وهكذا يرفض القاضى وولسى فكرة الحكم على رواية «يوليسيس» أو أى عمل فنى آخر من منطلق المعايير الأخلاقية.

ويجدر بالذكر أن وولسى اتخذ من الشخص العادى (أى المعتدل) فى رغباته الجنسية معيارا للحكم على بذاءة أو عدم بذاءة أى كتاب. يقول وولسى فى هذا الشأن:

يجب على هيئة المحكمة عند الحكم على أى كتاب بأنه يميل إلى إثارة النوازع والأفكار الشهوانية أن تأخذ فى اعتبارها أثر هذا الكتاب فى الشخص ذى النوازع الجنسية المتوسطة (أى المعتدلة) على حد تعبير الفرنسيين.

والجدير بالذكر أن معيار الشخص العادى كان موضع سخرية كثير من أدباء القرن التاسع عشر والمحدثين أمثال ماثيو أرنولد وأوسكار وايلد. ومن المهم أن نعرف أن الشاعر إزرا باوند نظم قصيدة ساخرة بعنوان الرجل العادى ذو النزعات الجنسية المعتدلة ترمى إلى التعريض بمثل هذا الرجل. ويعلق بعض النقاد على قرار وولسى بالقول بأن هذا القاضى اعتبر نفسه معيارا للرجل العادى ذى النزعات الجنسية المعتدلة.

واللافت للنظر على أية حال أن القاضى وولسى كان نموذجا فريدا بين القضاة فهو واسع الثقافة والاطلاع فى مجالات أبعد ما تكون عن القانون. فيكفى أن نعرف أنه توفر على قراءة كتب النقد الأدبى التى تناولت أعمال جيمس جويس بالتحليل والدراسة، وهو ما لم يفعله الكثيرون من المتخصصين فى الأدب.

ومن المبادئ المهمة التى التزم بها وولسى عند الحكم على أى كتاب عدم الاكتفاء ببذاءة أجزائه حيث ينبغى الحكم عليه ككل متكامل. وسعيا من جانبه إلى التأكيد على موضوعية حكمه طلب وولسى من اثنين من أصدقائه المعتدلين فى نوازعهما الجنسية ـ ودون ذكر اسميهما ـ قراءة الرواية موضع التقاضى فى استقلال تام عن بعضها البعض لمعرفة مدى قدرتها على استثارة الشهوة الجنسية. يقول وولسى فى هذا الصدد: هذان الرجلان اللذان كلفتهما بتقييم رواية «يوليسيس» من الناحية الأدبية كانا لا يعرفان بعضهما البعض، كما لا يعرف الواحد منهما أننى كلفت الآخر. وهما رجلان أكن احتراما كبيرا لرأيهما فى الأدب والحياة: وقرأ الرجلان وهما هنرى سيدل كانبى وشارلس إميريل الأصغر رواية جويس. وبعد الانتهاء من مطالعتها قررا أنها لم تثر فيهما أية نوازع أو أفكار شهوانية. ولا شك أن وولسى أحسن صنعا عندما طلب من صديقيه قراءة الرواية ككل، حيث إن هذه القراءة المكتملة أفضت إلى حكمه بعدم بذاءتها من الناحية القانونية.

ولم يكتف وولسى بالحكم على عدم بذاءة الرواية ككل، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وهو أن الرواية ليست بذيئة فى أجزائها. وفيما يلى رأيه:

إننى أدرك تماما أن بعض أجزاء «يوليسيس» جرعة قوية بعض الشىء فطلبت من بعض الأشخاص الحساسين والعاديين أن يتجرعوها . ولكن رأيى القائم على التمحيص والمستند إلى تفكير طويل هو أن الرواية تدعو بدون شك قارئها إلى القئ بعض الشىء ولكننا لا نرى فيها أية أجزاء

تجنح إلى الشهوانية. وفى حكمه على الرواية لا يغيب عن بال وولسى علاقة الجزء بالكل. وبعد تصريحه بعدم بذاءة الرواية نراه يقول: «لست أرى فى أى موضع من الرواية أية نظرة شهوانية أو شبقية». ورغم اعترافه بأن هذه الرواية مقززة أحيانا إلا أنه يقول: لم أجد فيها أى شىء يمكننى أن أعتبره قذرا من أجل القذارة. وعلى أية حال لم ينكر جويس بذاءة بعض أجزاء الرواية، فنحن نراه يقول لفرانك بودجن إنه من المحتمل أن تكون حكاية بنيلوبى أكثر بذاءة من أى من الحكايات التى سبقتها.

ورغم تبرئة القضاء لرواية «يوليسيس» من تهمة البذاءة من الناحية القانونية فإن عددا لا يستهان به من النقاد أكدوا اشتمالها على بذاءات مثل الناقد ليسلى فيلدر وريتشارد براون ومارجوت نوريس وجول دافيدلو. ويعتبر لقاء بلوم وجيرتى ماكدويل من أكثر الأجزاء بذاءة فى الرواية.

وبعد تقديم رواية «يوليسيس» إلى المحاكمة عام ١٩٣٣ والانتهاء من إجراءات المحاكمة نرى موريس إرنست المحامى يعترف ببذاءة بعض أجزائها. وهو ما ذهب إليه فيلدر ونقاد آخرون.

ومن الواضح أن حكم البراءة الذى أصدره وولسى تأثر تأثرا واضحا بقراءة هذا القاضى لكتاب ستيوارت جلبرت عن الرواية، فقد قرأ هذا الكتاب بعناية فائقة حيث إنه ردد بعض عبارات الثناء التى أوردها هذا الناقد فى كتابه. ويذهب بعض الدارسين إلى أن حكم القاضى وولسى على رواية «يوليسيس» يندرج فى خانة النقد الأدبى أو المراجعة الأدبية، فضلا عن جوانبه القانونية. فقد ذكر أحد كتاب مجلة جورج واشنطن القانونية ما

يلي: يبدو أن نظرة وولسى المتحررة إلى رواية «يوليسيس» جاءت كنوع من الرد على الإجراءات القمعية التى اتبعها النظام النازى الذى لم يتورع عن حرق الكتب. ويسجل الحكم الذى أصدره وولسى لصالح الرواية أول انتصار قانونى عظيم للنظرية الجمالية فى الفنون والآداب، وهى النظرية التى حلت محل النظرية الجمالية / الأخلاقية التى سادت محاكمة رواية مدام بوفارى لفلوبيرت عام ١٨٥٧، بالإضافة إلى المحاكمات الباكرة الأولى التى تعرضت لها رواية «يوليسيس».

وأشاد عدد كبير من رجال القانون والآداب بأهمية الحكم الذى أصدره وولسى. فعلى سبيل المثال كتب المحامى إرنست أن هذا الحكم حدث مهم فى تاريخ الكفاح من أجل حرية التعبير، مؤكدا أن إلغاء هذا القاضى الحظر على المحرمات الجنسية فى الأدب سوف تكون له آثاره البالغة. وقد اقتنع فانلى أو هدسون أستاذ القانون الدولى فى جامعة هارفارد بحكم وولسى بقوله إن هذا الحكم فتح آفاقا جديدة لابد لها أن تستمر، وكذلك وصف الناقد لويس جارنيت الحكم بأنه حكم تاريخى سوف يبقى مع الزمن. حتى الناقد هاى وود براون الذى عبر عن تشككه فى الأهمية التى علقها المحامى إرنست على الحكم وافق على أنه حكم جديد ورفيع فى ليبرالية القوانين. وذهب نيت سيرف المحرر فى دار نشر راندوم هاوس إلى رأى مفاده أن قرار وولسى تاريخى سيبقى على مدار الزمن. ويمكن القول إن قلة من الأقلام هاجمت القرار الذى اتخذه وولسى بشأن الرواية، فى حين أثنت الغالبية العظمى عليه باعتباره حكما قضائيا مستنيرا له نتائج مهمة ودائمة.

ومن ناحيته أظهر جيمس جويس ابتهاجا لقرار وولسى وخاصة لأن هذا القرار أدى إلى زيادة ضخمة فى عوائده من الحقوق الفكرية والأدبية. غير أن ابتهاج جويس بالقرار كان غامضا فى دوافعه. يقول بول ليون فى هذا الشأن: إن المستر جويس وجد أن القاضى لا يخلو من الإحساس بالفكاهة. فإذا كان هذا القول يدل على شىء فإنه يدل على أن ابتهاج جويس يرجع إلى أن القاضى وولسى سمح بإدخال عنصر البذاءة فى الأدب دون حظر أو مصادرة، ولا يرجع إلى الموقف الأدبى النقدى الذى اتخذه القاضى عند الحكم على الرواية. فقد كتب جويس فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٣ يقول: لقد استسلم نصف العالم المتحدث باللغة الإنجليزية وسوف يستسلم نصفه الآخر.

وأيضا عبر مكتب المحامى العام الأمريكى عن فرحته بقرار القاضى. ويذكر لنا الكسندر ليندى أن نيكولاس أطلس بدا مبتهجا بهذا القرار. ويبدو أن المحامى العام الأمريكى جورج ميدلاى كان مرتاحا إلى حكم القاضى وولسى لأنه لم يفكر فى الاستئناف ضده. ولو كان الأمر بيد جورج ميدلاى لرأت مشكلة الرواية طريقها إلى الحل فى وقت باكر. ولكن الظروف السياسية المواكبة لنشر رواية «يوليسيس» حالت دون الوصول إلى حل سريع لمشكلتها. فقد ساد أمريكا رعب من خطر الشيوعية القادم. وبينما كان القاضى وولسى ينظر قضية «يوليسيس» انتخب روزفلت رئيسا للولايات المتحدة. ولم يمر وقت حتى قام روزفلت بتغيير المحامى العام الجمهورى جورج ميدلاى وأحل محله مارتن كونبوى المحافظ المتزمت الذى كان فيما مضى يعمل فى جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة. وبطبيعة

الحال لم يكن كونبوى المحامى العام الجديد مرتاحا إلى حكم وولسى القاضى بتبرئة الرواية من البذاءة. بالعكس فقد رأى فى هذا الحكم تشجيعا على البذاءة، ولهذا سارع إلى معارضة الحكم الذى أصدره وولسى وأبلغ فى أوائل فبراير ١٩٣٤ هومر س. كمنجز أنه يفكر فى الاستئناف ضد حكم البراءة، وخلال أسبوعين حزم مارتن كونبوى أمره وكتب إلى المحامى العام يقول: أحبذ بشدة الاستئناف ضد الحكم فى محكمة الدائرة للاستئناف. غير أن حكم الاستئناف الصادر كان لصالح الرواية، ولكن من منظور يختلف عن منظور القاضى وولسى. ففى حين حكم هذا القاضى ببراءة الرواية من منظور جمالى صرف جاء حكم البراءة من محكمة الاستئناف أقل تطرفا وأكثر قصدا واعتدالا من منظور يجمع بين المعايير الجمالية والأخلاقية.

* * *

اعتقد كونبوى حين التجأ إلى محكمة الاستئناف للطعن فى براءة رواية جويس أن خطأ شاب حكم وولسى ببراءتها. وأغلب الظن أنه كان أيضا مقتنعا بأن مكتب المحامى العام السابق لم يقدم إلى القضاء وجهة نظره المناهضة للرواية بشكل مقنع. وكان كونبوى بطبيعة الحال يدرك أن المحامى العام ميدلاى ومساعديه لم يتقدموا بمذكرة رسمية توضح اعتراض الحكومة على الرواية. وطبقا لوجهة نظر كونبوى فإن «يوليسيس» (سواء اتسمت أو لم تتسم بمزايا أدبية) رواية فريدة من نوعها تتصف بالبذاءة. ولابد أن كونبوى كان يدرك أنه يمكن لمعارضيه الاستفادة من محاجته فى الدفاع عن «يوليسيس» أكثر من هجومهم عليها ونيلهم منها.

اعتبر كونبوى رواية «يوليسيس» بذيئة من الناحية القانونية بسبب ما ورد بها من بذاءات فى الصفحات التالية: ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ٢١، ٣٣١ _ ٣٣٥، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٦٧، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٦، ٤٠٨، ٦٨٤ ثم صفحة ٦٩٠ فصاعدا، الأمر الذى يدل على تغير موقف الحكومة الأمريكية من الرواية حيث إن الادعاء المتمثل فى كولمان لم يعترض على ما أورده جويس فى الصفحات ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ٢١، كما أن كولمان لم يعترض على أية صفحة من صفحات حكاية بنيلوبى. واتضح من فحص كونبوى للصفحات الخمس الأولى أن التجديف على الله سبب له ضيقا وإزعاجا أكثر مما سببه لكولمان. هذه الصفحات المجدفة تخلو من البذاءة والانحلال الفاضح ولكنها تتضمن تعريضا بالدين وسخرية من الله. ويبرر هذا قول المحامى إرنست إن معارضة الحكومة للرواية لا ترجع إلى بذاءتها فحسب بل إلى تجديفها أيضا. ويتضح لنا من هذا أن إيمان كونبوى بالعقيدة الكاثوليكية لعب دورا فى السعى إلى إدانة الرواية أمام محكمة الاستئناف.

وفى يوم ٦ مارس ١٩٣٤ سمح جوزيف ب. كينان مساعد المحامى العام لكونبوى أن يبدأ إجراءات الاستئناف. وأوضح كينان الأسباب التى دعته إلى اتخاذ هذه الخطوة. فهو يعترف بعسر فهم الرواية وصعوبة قراءتها. وفى حين استغل وولسى نفس هذه الحيثيات لدحض تهمة البذاءة الموجهة ضد الرواية اتباعا لوجهة نظر المحامى إرنست، ذهب كينان إلى رأى مخالف مفاده أن «يوليسيس» اعتمدت فى نجاحها - هذا إذا كانت بالفعل ناجحة - على القذارة والبذاءة والألفاظ الفاحشة الواردة فيها، الأمر الذى زاد

من رواجها وشعبيتها بين قطاعات معينة من القراء. وأيضا وافق كينان على رأى وولسى القائل بأن الرواية تتسم بالصراحة وتصور بصدق أفعال وأفكار قطاع معين من أهل دبلن... وفى حين اعتبر القاضى وولسى أن هذا ينفى تهمة البذاءة، رأى كينان عكس ذلك. فهو يقول: لا شك أن جانبا من اللغة المستخدمة والأفكار المصورة قذرة وبذيئة ومخلة إذا نظرنا إليها بمعزل عن بقية الرواية، مثل ص ٦٨٥ – ٦٨٩، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧١١، ٧٢٥).

ويعلق جوزيف كينان على قرار البراءة الذى أصدره القاضى وولسى بقوله:

«من المعتقد أن القاضى وولسى الذى رأى أن الرواية غير بذيئة وغير منحلة بالمعنى القانونى نظر إلى الرواية من منظور فنى وأدبى ومن وجهة نظره الشخصية، وهى أبعد ما تكون عن وجهة نظر شخص عادى الذكاء، وأبعد أيضا عن التقييم العادى للأدب والفن. ألا يجدر بنا النظر إلى الرواية من وجهة نظر من يعرف بوجه عام برجل الشارع وليس من وجهة نظر شخص له باع طويل فى مجال الثقافة والتعليم؟».

وتدل هذه الملاحظات على أن كينان أدرك مدى تأثر وولسى فى قراره بالاعتبارات الأدبية (وليس الاعتبارات الأخلاقية)، كما رأى فى حديث وولسى عن الإنسان العادى فى نزعاته الشهوانية مجرد إنسان افتراضى يختلف بكل تأكيد عن رجل الشارع.

علما بأن كينان استند فى دعواه إلى التعريف الدقيق لكلمة بذاءة، ونحن نرى هنا أن هذا المساعد للمحامى العام يرفض تعريف وولسى

للبذاءة بأنها: الميل إلى إثارة شهوة الجنس أو ما يقود المرء إلى التفكير الجنسى الدنس. ولكن كينان شأنه شأن كولمان آثر أن يتبنى مفهوما أو تعريفا أوسع للبذاءة. لقد عرف وولسى كلمة البذاءة كما ورد شرحها فى قاموس أكسفورد، فى حين رأى كينان أن رواية «يوليسيس» تستخدم اللغة البذيئة والإباحية بمعناها الأضيق. لم يكن كينان مقتنعا بروعة «يوليسيس» كعمل فنى حديث، فقد رأى أنها لا تحتل مكانة رفيعه فى مجال الأدب، تجعلها تتجاوز المساءلة القانونية. ومن الواضح أن جهله بأهمية الرواية ينم عن عدم متابعته لمحاجات المحاميين إرنست وليندى فى هذا الشأن.

وخلاصة القول إن القرار الذى اتخذه مكتب المحامى الأمريكى بشأن السماح لكونبوى بالاستئناف ضد الحكم الذى أصدره وولسى كان مبنيا على رفض كينان تعريف البذاءة طبقا لمفهوم وولسى. فضلا عن استناده إلى عدة عناصر رئيسة أخرى تشمل التالى:

١- عدم الحاجة إلى مطالعة كتب النقد الأدبى التى تناولت رواية «يوليسيس» والتى تعلى من شأنها وتعتبرها إحدى الروائع الأدبية البارزة.

٢- عدم أهمية التعرف على نية المؤلف (سوى انتوى الإبداع الفنى أو الحقيقة العلمية) على الأقل فيما يتعلق باستبعاد احتمال وجود أية بذاءة فى الرواية.

٣- أهمية الحكم على أى عمل أدبى أو فنى ككل، بغض النظر عن بذاءة الأجزاء.

٤- عدم أهمية الحكم على الأثر الذى تتركه رواية «يوليسيس» فى نوازع الشخص العادى الشهوانية طبقا لتعريف وولسى للبذاءة.

وبعد مرور وقت قصير على موافقة المحامى العام فى ٧ مارس ١٩٣٤ على قضية الاستئناف ضد الرواية قدم كونبوى مذكرة بعنوان مذكرة رافع القضية.. تضمنت رفضه لكافة الأركان التى بنى عليها القاضى وولسى حكمه.

بدأ كونبوى مذكرته بقوله إن المعيار الصحيح للبذاءة هو القاعدة القانونية التى أرساها القاضى هيكلين ومفادها أن البذاءة هى ميل المادة للإفساد والخطر على أخلاق كل عقول الأشخاص القابلة للفساد التى قد تقع المطبوعة البذيئة فى أيديهم. ويذهب كونبوى إلى أن الأمر لا يحتاج إلى نقاش طويل للتأكد من بذاءة «يوليسيس» طبقا لهذا المعيار حيث يكفى مصداقا لهذه البذاءة أن نطالع الصفحات التالية: ١٧٣، ٢١٣، ٢١٤، ٢٣١، ٢٣٣، ٣١٨، ٣٢٩ – ٣٦٤، ٣٩٨، ٣٩٩ – ٤٢٣، ٤٢٤– ٤٣٤، ٤٥٨، ٤٦٧ – ٤٦٨، ٤٨٩ – ٤٩١، ٥٠٠، ٥٠٨، ٥٢٢ – ٢٢٥، ٥٢٧، ٥٥٢ – ٥٥٣، ٥٥٥ – ٥٥٦، ٧١٨ – ٧٢٠، ٧٢٤ – ٧٢٧، ٦٣١، ٧٣٨ – ٧٣٩، ٧٤٤ – ٧٥٢، ٧٥٤ – ٧٥٥، ٧٦١ – ٧٦٢، ٧٦٥.

ومعنى ما تقدم أن كونبوى لم يرفض تعريف وولسى للبذاءة فحسب بل رفض أن يعتبر معيار البذاءة: الشخص ذو النوازع الجنسية المعتدلة، وذهب كونبوى فى تعريفه للبذاءة وإلى ما ذهب إليه هيكلين وجعل معيارها قدرتها على إفساد الشاب أو الحدث الذى تقع الرواية فى يده.

ثم انتقل كونبوى إلى رفضه أخذ كتب النقد الأدبى فى الاعتبار كما رفض أيضا تعليق أية أهمية على نوايا المؤلف، فهو يقول فى هذا الشأن:

«لا يمكن قيام أية محاجة على أساس غرض المؤلف أو أهميته أو عدم أهميته الأدبية أو تحريه أو عدم تحريه للصدق النفسى. إن الكتاب لا يفقد شيئا من بذاءته سواء كانت المادة موضع الشك تتحرى أو لا تتحرى الصدق فى واقع الأمر».

فضلا عن ذلك رفض كونبوى فكرة وولسى المنادية بالحكم على العمل الأدبى ككل دون الالتفات إلى ما يحتويه من أجزاء بذيئة، فبذاءة الأجزاء من وجهة نظر وولسى ليست بحال من الأحوال دليلا على بذاءة الكل. أما كونبوى فقد رأى أنه ليست هناك أية أهمية إذا كانت الرواية لا تحتوى على فقرات وأجزاء كثيرة غير بذيئة. وبالنظر إلى وجود عدد وفير من الفقرات البذيئة فى رواية «يوليسيس» فإنها تكفى لتوضيح أن المحكمة الإقليمية أخطأت عندما حكمت بعدم بذاءة يوليسيس.

وبعد مرور وقت قصير على قيام كونبوى بتقديم مذكرته تقدم المحامى إرنست بالرد على هذه المذكرة وهى لا تختلف كثيرا عن المذكرة التى سبق له أن تقدم بها إلى القاضى وولسى. وتكونت هيئة محكمة الاستئناف من ثلاثة قضاة، ولكن مع فرق ضئيل. ففى حين كانت نسخة الرواية التى اعتمد عليها القاضى وولسى فى باريس مليئة بتعليقات النقاد وآرائهم فإن القضاة الثلاثة فى محكمة الاستئناف اعتمدوا على الطبعة التى قامت دار نشر راندوم هاوس بإصدارها عام ١٩٣٤ . وهناك فرق آخر وهو أن محاميً الدفاع إرنست وليندى لم يسمح لهما

بتزويد القضاة الثلاثة بالكتابات والآراء النقدية على عكس ما حدث مع القاضي وولسي الذي أمده الدفاع بالكتب النقدية التي أصدرها هربرت جورمان وبول جوردان سميث وستيوارت جلبرت.

بدأت جلسات الاستماع في محكمة الاستئناف يوم ١٦ مايو (١٩٣٤) برئاسة القاضي مارتن ن. مانتون وعضوية القاضيين ليرند هاند وأوغسطوس هاند. ناصر ليرند هاند رواية «يوليسيس»، علما بأنه سبق له أن عبر عن اعتراضه على قاعدة هيكلين في تعريف البذاءة من الناحية القانونية وأن أظهر تحمسا لحرية التعبير. غير أن موقف ابن عمه القاضي أغسطوس هاند كان غائما وغير واضح حيث إنه في عام ١٩١٧ أيد القرار الذي سبق أن اتخذته مصلحة البريد بعدم تداول قصة رفيقة كانتلمان في فصل الربيع، فضلا عن أنه حظر نشر هذا الكتاب في مجلة الريفيو الصغيرة، ولكن هذا الرجل تصرف بطريقة مغايرة في عام ١٩٣٠ عندما سطر القرار الذي أصدرته محكمة الاستئناف بالإجماع والخاص بإسقاط تهمة البذاءة الموجهة ضد نشرة لتعليم الجنس للأطفال كتبتها ماري دابليو دينيت تحت عنوان الجانب الجنسي في الحياة ورغم أن هذا القرار لم يرفض القاعدة العامة التي اتبعها القاضي هيكلين فإنه كان يميل إلى تأييد هذا الرفض، وعلى أية حال أبدى القاضي مارتن مانتون ميلا أكيدا – بعكس كل من القاضيين ليرند هاند وأغسطوس هاند – إلى التعاطف مع كونبوي والاعتراض على «يوليسيس»، ولا غرو فقد حدا به إيمانه بالمذهب الكاثوليكي إلى تأييد الكثير من الاعتراضات الموجهة ضد هذه الرواية.

واستناداً إلى الصحف التي تناقلت أخبار المحاكمة بدأ كونبوي

استئنافه ضد رفع الحظر على الرواية بقراءة تعريفات متنوعة كما وردت فى عدد من القواميس المعتمدة مبينا اتفاق هذه المعاجم على تعريف البذاءة بأنها تلك التى تخدش الحياء والطهارة والتهذيب والرقة. ثم حاول كونبوى أن يوضح أن دار النشر راندوم هاوس اعترفت ببذاءة الرواية بهذا المفهوم لأنها نشرت على غلاف رواية «يوليسيس» إدانة جيمس دوجلاس العنيفة لها كما وردت فى صحيفة الصنداى اكسبريس. ولعل من المهم أن نعرف أن المؤلف جيمس جويس أورد هجوم جيمس دوجلاس العنيف على روايته تحت عنوان مقتطفات من أقوال الصحف، وقد كتب دوجلاس ما يلى: أقول عن عمد ونية مبيتة إن هذا الكتاب الأكثر بذاءة فى الأدب قديمه وحديثه.. إن بذاءة رابيليه تبدو ساذجة وبريئة بالمقارنة بفظاعات رواية «يوليسيس» المريضة ببرص الشهوة وخدش الحياة. وهى جيمعا بالوعات صرف صحى سرى تصب فى طوفان من الأفكار والصور والكلمات الفاضحة التى يعجز المرء عن تصورها. كما أن لوثتها القذرة تتسخ بتجديف مروع وفظيع ضد الدين المسيحى وضد السيد المسيح.

وتدل دعاية الناشر راندوم هاوس لرواية «يوليسيس» على أن تسويقها والترويج لها شىء والدفاع عن براءتها من الناحية القانونية شئ آخر؛ فقد تعمد المحاميان إرنست وليندى إغفال الإشارة إلى تجديف الرواية وتهجمها على السيد المسيح.

ولم يفت كونبوى أن يستغل هذه الفرصة، فقد لفت نظر محكمة الاستئناف إلى الكلمات القاسية والهجوم القاذع الذى شنه دوجلاس ضد رواية «يوليسيس» التى تتناول يوما واحدا فى حياة يهودى مجرى يعيش

فى دبلن بإيرلندا وتسجل كل ما يخطر على باله وبال زوجته خلال أربع وعشرين ساعة. ثم يمضى كونبوى فى هجومه على الرواية قائلا: تعرض علينا الرواية كل الشرور والأفكار الإباحية دون أية ضوابط أو قيود ودون محاولة التخفيف والتلطيف من سوئها. فالرواية تصور لنا الأفعال الجنسية الطبيعى منها والشاذ واستخدام موانع الحمل، وتشغل الأوصاف الدقيقة وأحاديث بيوت الدعارة (التى من المفترض أن البطل ينفق فيها كثيرا من وقته) جانبا كبيرا من الرواية.

وأيضا رفض كونبوى عقد مقارنات بين الرواية والأوديسا، الأمر الذى يدل على رفض كونبوى النظر إلى بلوم على أنه بطل روائى حقيقى. فـ«يوليسيس» عند هوميروس يتميز بالشجاعة والوقار والجلال، فضلا عن تهذيبه ورقة حاشيته فى حضرة الأميرة نوسيكا.. كل هذه الفضائل غير موجودة فى شخصية بلوم كما رسمها جويس.

ومضى كونبوى ليقرأ على المحكمة فقرات من رواية «يوليسيس» لإثبات بذاءتها تظهر عليه إمارات الخجل والتلعثم ويتحرك بتشنج وعصبية على عقبيه فى حين تابعة القضاة الجالسون على المنصة بوقار وهم يمسكون بالأقلام الصفراء ... ويتابعونه فى نسخ الرواية التى فى أيديهم، وبعد مضى عشر دقائق نهضت إحدى السيدتين الحاضرتين واقفة لتغادر قاعة المحكمة.

لم تكن هذه السيدة الوحيدة التى ظهر عليها التبرم ونفاد الصبر حيث أن القاضى ليرند هاند نفسه قاطع كونبوى ليسأله:

- هل تنوى أن تقرأ علينا الكتاب بأكمله؟

فرد عليه كونبوى بقوله:

- سوف أعطيكم نماذج كثيرة منه

وورد فى تقرير صحفى آخر أن القاضى ليرند هاند سأل كونبوى إذا كان يرى ضرورة أن يقوم أعضاء المحكمة بقراءة رواية «يوليسيس» فأجابه كونبوى لا، ثم استطرد قائلا: سوف أقرأ عليكم نماذج كثيرة من بالوعة الصرف الصحى هذه وظل يقرأ حتى انسحب أعضاء المحكمة للاستراحة وتناول الغداء. وبعد عودتهم استمر كونبوى فى قراءة الصفحات تلو الصفحات من رواية «يوليسيس» حتى أعلنت المحكمة التوقف من أجل فسحة أخرى. وحتى بعد أن عاد القضاة إلى الاجتماع فى اليوم التالى واصل كونبوى قراءة صفحات أخرى من الرواية. يقول أحد الصحفيين إن كونبوى قرأ ما لا يقل عن خمس وعشرين فقرة من الرواية، وذكر صحفى آخر أن الصفحات المقروءة تناولت على وجه الخصوص أشرطة الذكريات والأفكار والمناجيات التى دارت فى خاطر السيدة مولى بلوم. ولم يركز كونبوى على بذاءة الرواية فقط ولكنه ركز على تجديفها أيضا.. إذ يقول إنها رواية بذيئة تبدأ بالتجديف ثم تصف كل أنواع الشذوذ الجنسى لتنتهى بالقذارة والوساخة.

وجاء دور المحامى إرنست كى يتحدث فقرظ رواية «يوليسيس» واصفا إياها بالعمل الروائى العظيم وأيضا وصف مؤلفها جويس بالعبقرى الفذ وعبر إرنست عن رفضه إشارات كونبوى إلى الهجوم الذى شنه

جيمس دوجلاس على «يوليسيس» قائلا إن الحكومة لم تعثر إلا على ناقد واحد يناصب الرواية العداء، فى حين أن كوكبة من عظام النقاد لا يقل عددهم عن خمسين ناقدا أكثر شهرة ولمعانا امتدحوها وأثنوا عاطر الثناء عليها. وأيضا ذكر إرنست أمام المحكمة أن جامعة هارفارد تقوم بتدريس رواية «يوليسيس» فى مناهجها، وأن رفوف العديد من المكتبات الأمريكية تزدان بها، وكذلك اعترض إرنست على قيام كونبوى بقراءة بعض مقتطفات الرواية وأصر على ضرورة قراءتها ككل، ثم انتقل إلى مناقشة المعايير المتغيرة فى يومنا الراهن. وأخيرا أصر إرنست على ضرورة أخذ نية المؤلف فى الاعتبار لأن هدف جويس من تأليف «يوليسيس» تقديم دراسة عن العقل البشرى.

ويلاحظ أن مرافعة إرنست أمام محكمة الاستئناف تختلف فى أمرين عن مرافعته أمام القاضى وولسى، وتتمثل نقطة الخلاف الأولى فى أن إرنست بدأ أكثر استعداداً عن ذى قبل لمناقشة الرواية والدفاع عنها من المنظور الأخلاقى التقليدى مثل اعترافه بأن بعض أجزاء الرواية يجعل حمرة الخجل تعلو وجه قارئها. ولكنه ذهب إلى أن هذه الفقرات المخجلة من الرواية تدعو إلى الاشمئزاز والنفور أكثر مما تدعو إلى الفساد. أما نقطة الخلاف الثانية فتتلخص فى أن إرنست وافق على مقولة القاضى ليرند هاند إن رواية «يوليسيس» وما شابهها من كتابات تثير من الاشمئزاز أكثر مما تثير من الشهوة (وهو ما ذهب إليه القاضى وولسى حين ميز بين ما يثير الغثيان وما يثير الشهوة). ويتجلى التغير الذى طرأ على موقف المحامى إرنست فى أنه أصبح الآن على استعداد للاعتراف بأن بعض

أجزاء رواية «يوليسيس» مثيرة للشهوة، ويتضح لنا هذا من إقراره بأنه لا يوجد عمل روائى عظيم باق على مر الزمن يخلو من الإثارة الجنسية. وبعد انتهاء المحامى إرنست من مرافعته أعلن قضاة محكمة الاستئناف الثلاثة إنهم سوف يأخذون وقتهم قبل إصدار الحكم، واتفق ثلاثتهم فيما بينهم على أن يتقدم كل منهم بمذكرة تتضمن وجهة نظره.. يقول جيرالد جونتر إن المذكرات الثلاث التى سبقت النطق بالحكم تدل على وجود خلافات فكرية جلية، فقد اختلفت وجهة نظر القاضى مانتون اختلافًا واضحا عن وجهتى نظر كل من القاضيين ليرند هاند وأغسطوس هاند، فقد عبر ليرند هاند عن تأييده للحكم الذى أصدره وولسى الذى حكم بأن الرواية ليست بذيئة من الناحية القانونية ولكنه لم يقبل رأى وولسى القائل بان «يوليسيس» تخلو تمامًا من البذاءة، على العكس من ذلك اعتقد ليرند هاند أن الرواية يمكن أن تثير المشاعر الشهوانية ليس فى نفوس الشباب فحسب بل فى نفوس الراشدين العاديين أيضا. وطبقا لرأى هذا القاضى يجب الحكم على مثل هذه الفقرات على أساس علاقتها بالرواية ككل.. يقول ليرند هاند فى هذا الشأن:

إذا أقدم كاتب على تأليف كتاب شهوانى من أوله إلى آخره فلا يجب أن يتمتع رأيه بأية حصانة، ولكن هناك موضوعات تقتضى معالجتها بالصدق والاكتمال. وهى موضوعات عند النظر إليها كأجزاء لا ينبغى أن تحظى بأية حصانة. غير أن الصورة الكاملة التى يرسمها هذا الكاتب لا تثير أية مشاعر شهوانية. إن المصالح المتضاربة تتمثل فى حرية المؤلفين فى التعبير عن أنفسهم تعبيرا كاملا وحسبما يرغبون دون إفساد

عقول قرائهم. ولا يعنى كلامى أن أى موضوع برئ وغير ضار فى حد ذاته لا يمكن معالجته على نحو يدينه. ومن الخطر أن نستن مبدأ مطلقا مفاده أن أى شئ يتعلق بتطور أحداث قصة أو أن موضوعا بريئا فى عمومه يمكن أن يهرب ويتخفف من التبعة بحيث لا يصبح سببا فى إدانة الكل. وإنى شخصيا فى أغلب الأحيان أقبل أن أجعل علاقة الجزء بالكل معيارا للحكم.

وعند تطبيق القاضى ليرند هاند لهذا المعيار على رواية «يوليسيس» نجده - مثل ابن عمه - يخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه الفقرات المسيئة ضرورية لتطور ما يسميه ملحمة الروح، كما ارتأى جويس. ومن ثم فإن هذه الأجزاء البذيئة تعتبر دافعا يحفز القارئ كى يمضى فى القراءة. ولهذا السبب فهى فى اعتقاده لا تكفى لإدانة هذا العمل العظيم والإنجاز الضخم فى عالم الأدب.

والجدير بالذكر أن محاجة القاضى أغسطوس سارت فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه محاجة ابن عمه ليرند هاند وهى التسليم بأن بعض أجزاء «يوليسيس» مثيرة للاشتهاء الجنسى. يقول أغسطوس هاند: إنه يعتقد أن بعض أجزاء رواية «يوليسيس» بذيئة:

ربما تكون مناجاة السيدة بلوم فى أثرها المباشر شهوانية ولكنها بوجه عام مأساوية وتثير الشفقة، مثلها فى ذلك مثل جانب كبير من الرواية نفسها حيث نرى الفكاهة تختلط بالمأساة. والرأى عندى أن هذه الفقرات أقل فى خفتها وفكاهتها من الفقرات التى رسم فيها رابيليه عروسا تولج مطرقة خشبية بين فخذيها. فمثل هذه الفكاهة بكل بساطة نوع من

الفكاهة الخشنة وليست فكاهة شهوانية على الإطلاق كما هى الحال فى بعض فقرات رواية «يوليسيس». ومضى القاضى أغسطوس يجادل على النحو الذى جادل به ابن عمه ليرند، فقد أقر بأن المعيار السليم للحكم على بذاءة رواية «يوليسيس» تكمن فقط فى النظر إليها ككل. يقول أغسطوس فى هذا الشأن:

إذا نحن لم نحكم على أى كتاب ككل ومدى أثره العام والهدف الموضوعى منه فسوف نستبعد الكثير جدا من الآداب الراسخة والمعترف بها. غير أن أغسطوس هاند على كل حال لم يقبل محاجة ابن عمه باعتبار علاقة الجزء بالكل معيارا للبذاءة. ولكنه أكد عند تقييم أى كتاب أهمية النظر إلى مجمل الأثر الذى يتركه فى نفوس قرائه.

وحول تحديد الخط الفاصل بين الكتب التى تحتوى قدرا مقبولا من البذاءة والكتب التى تحتوى قدرا مفرطا فى البذاءة كتب أغسطوس يقول: لن أتردد فى وضع الحد الفاصل والمرفوض للبذاءة إذا جاء من يجمع الأجزاء البذيئة فى سلة واحدة وبمعزل عن بقية العمل مثلما حدث فى ملخص المذكرة التى أدانتها محكمة الجلسات. حدث هذا فى عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ عندما فرضت الرقابة الحظر على مجلة الريفيو الصغيرة. ولا شك أن نشر الرواية على حلقات فى هذه المجلة أضر بالرواية، حيث إنها لم تتح الفرصة للقارئ للاطلاع عليها كاملة، فضلا عن إبرازها للأجزاء البذيئة خارج سياق الرواية العام. ولا شك أن الشاعر إزرا باوند كان محقا عندما قال إن خير دفاع عن الرواية هو الدعوة إلى قراءتها ككل. ورغم وجود بعض الخلافات الجوهرية فى الرأى بين أغسطوس هاند وبين

القاضى وولسى فإن هاند اعترف قائلا: لست مستعدا أن أشكك فى القرار الذى أصدره وولسى أو فى أن حكمه لم يستند إلى أساس قوى. وخلاصة القول إن كلا من ليرند هاند وأغسطوس هاند اعترضا على رأى وولسى القائل بأن الرواية تخلو تماما من البذاءة. ولكنهما رغم ذلك اتفقا على حكمه بأن قراءة الرواية ككل لا تثير شهوة الجنس. أما مانتون فقد عبر عن عدم موافقته على الحكم الذى أصدره وولسى. ولهذا جاءت مذكرة مانتون مناقضة تماما لحكم البراءة الذى أصدره وولسى. ومعنى هذا أن مانتون وافق على رأى كونبوى الرافض للرواية برمتها. وبوجه خاص أبدى مانتون اعتراضه، بل عبر عن شعوره بالاستياء الشخصى من تلميح وولسى إلى أن معالجة جويس للجنس تمثل معالجة كل أهل أيرلندا له. ومعنى هذا أيضا أن القاضى وولسى رد طريقة معالجة جويس للجنس إلى ثقافته الكلتية celtic وكذلك إلى خلفيته الكاثوليكية الرومانية. ولعل ما زاد من استياء مانتون أن القاضى وولسى يدين بالمذهب البروتستانتى.

وفى يوم ٧ أغسطس ١٩٣٤ قضت محكمة الاستئناف بالحكم لصالح نشر الرواية (بصوتين مقابل صوت واحد). وكما أسلفنا اعترض القاضيان المؤيدان لحكم وولسى المستند إلى النظرة الجمالية للفنون والآداب دون الاهتمام بالنظرة الأخلاقية.

عقد القضاة الثلاثة مؤتمرا تحدث فيه أغسطوس هاند الذى بدأه بالموافقة على رأى وولسى المنادى بضرورة أخذ الكتب النقدية التى تعالج رواية «يوليسيس» فى الاعتبار. قال يرى كتاب من أصحاب الرأى المحترم إنها رواية عظيمة الأثر وإنها أصبحت فى مرتبة الروائع أو الكلاسيكيات

المعاصرة. ثم انتقل إلى تأييد وجهة نظر وولسى بضرورة أخذ نوايا المؤلف فى الاعتبار. قال أغسطوس هاند إن جويس عقد العزم - شأنه فى ذلك شأن ميلتون - على تناول موضوع جديد لم يسبقه فيه أحد فى مجال الشعر والنثر. واستطرد أغسطوس هاند قائلا إن جويس آثر أن يتناول أشياء كان من المستحسن ألا يحاول معالجتها، ولكن كتابه رغم ذلك يتميز بالأصالة والابتكار، كما يتميز بالاتساق ونوع من الحرفية الممتازة. ويدل هذا على اعتراف بأن نية جويس تمثلت فى ابتكار عمل أدبى أصيل. وفى حين استخدم وولسى هذه المحاجة فى القول بأن الرواية تخلو من البذاءة فإن معظم القضاة فى محكمة الاستئناف رأوا خلاف ذلك. غير أن هذا لم يمنع هذه المحكمة من الذهاب إلى ضرورة النظر إلى الرواية ككل دون الاكتفاء بالنظر إليها كأجزاء، كما أن قضاة محكمة الاستئناف رأوا أن العديد من الفقرات الطويلة فى رواية «يوليسيس» تتسم بالبذاءة طبقا لأحكام القانون. ولكن القاضيين ليرند وأغسطوس ذهبا إلى ضرورة النظر إلى الرواية ككل وعدم الاكتفاء بالحكم عليها على أساس الفقرات البذيئة.

وحدث خلاف فى الرأى بين ليرند هاند وابن عمه أغسطوس هاند. ففى حين ذهب ليرند إلى ضرورة النظر فى علاقة الجزء بالكل نجد أغسطوس هاند يركز على الأثر العام الذى تتركه الرواية فى نفوس قرائها. وقد خلص القاضيان القريبان إلى أن الفقرات البذيئة فى رواية «يوليسيس» تتعلق بهدف المؤلف فى تصوير أفكار شخصياته. ومن ثم فإنها تضفى معنى على الكل أكثر من ميلها إلى إثارة الشهوة وتصوير القذارة من أجل القذارة. والأثر العام الذى تتركه الأجزاء البذيئة التى تتعرض أكثر من

غيرها للهجوم (مثل مناجأة مولى زوجة ليوبولد بلوم الختامية) تدعو إلى الرثاء والأسى أكثر مما تدعو إلى إثارة الشهوة. والكتاب فى مجموعه لا يعتبر أدبا مكشوفا أو فاضحا، فهو فى رأينا لا يثير الاشتهاء. وإذا نظرنا إلى الرواية ككل فسوف نرى أن الفقرات الشهوانية مغمورة على وجه العموم وأثرها الناجم ضئيل.

وهكذا رفض القاضيان هاند الأخذ بقاعدة هيكلين فى تعريف مفهوم البذاءة. واعتبرا الشخص العادى (أى الشخص المعتدل فى شهواته الجنسية) المقياس السليم للحكم على بذاءة أو عدم بذاءة أى كتاب، وذلك دون مناصرة الرأى القائل بأن القاضى وولسى قارئ من الطراز الأول وعلى درجة رفيعة من التعقيد الثقافى؛ يركز على التجربة الجمالية عند قراءة الأعمال الأدبية. ويسلم هذان القاضيان بأن الكتب الذى تشبه «يوليسيس» قد تثير شهوة بعض الناس. غير أن هذين القاضيين يريان أن فرض الحظر على أى عمل أدبى لهذا السبب سوف ينتهى بتدمير عناصر لها قيمتها لمصلحة قلة من الناس. ولو تمت مصادرة «يوليسيس» على أساس بذاءتها لكان بالأخرى مصادرة أعمال أخرى لا تخلو من الفحش والبذاءة مثل مسرحيات شكسبير فينوس وأدونيس وهاملت وروميو وجولييت، وحيث إن هذه الأعمال الأدبية مسموح بتداولها فمعنى هذا أنه لا ينبغى حظر بعض الأعمال الأدبية بسبب احتوائها على بعض الفقرات البذيئة.

واختتم القاضيان المؤيدان لتداول الرواية حديثهما بالقول إن المسئولية الملقاة على عاتقهما تقتضى منهما الموازنة بين فوائد العمل الفنى والأضرار الناجمة عنه. ولهذا فهما يريان أن كتبا تتمتع بالمزايا

الأدبية أو البصيرة العلمية مثل «يوليسيس» تفوق أية أضرار قد تنجم عنها، أو بمعنى أعم إن الفوائد الناجمة عن الحرية تفوق ما قد ينجم عن هذه الحرية من أذى. وبعدئذ دافع القاضيان هاند عن حق الأديب فى التجديد والتجريب.

لا شك أن الفن لا يستطيع أن يتقدم فى ظل الضغط على الأدباء والفنانين لإتباع الأشكال التقليدية. وليس هناك أى شىء أكثر قدرة على إعاقة التقدم من فرض القيود على حق الفنان فى أن يجرب استحداث، تكنيك جديد... ونحن نعتقد أن رواية «يوليسيس» تتميز بالابتكار وبصدق المعالجة. وهى لا تشجع على الاشتهاء الجنسى ولهذا فإنها لا تنتهك مواد القانون رغم أنها قد تكن مسيئة للكثيرين.

ويجدر بنا أن نكرر أن العضو الثالث القاضى مانتون أراد اتهام الكتاب بالبذاءة وإبطال حكم البراءة الذى سبق لوولسى أن أصدره. وطبقا لتفكير مانتون فإن من الواجب حظر أى عمل بذئ حتى إذا كانت له أهمية كبيرة، وبذلك يكون مانتون أحد المدافعين عن ضرورة التزام الأدب والفن بالفضيلة والأخلاق بمعناها الضيق، وهكذا يصبح هذا القاضى بتشدده الأخلاقى الأقرب من زميليه إلى تطبيق قاعدة هيكلين التى تعرف الكتاب البذئ بأنه ذلك الكتاب الذى يفسد عقول الذين لديهم استعداد للفساد الأخلاقى ممن قد يقع هذا الكتاب فى أيديهم.. ويرفض مانتون فكرة الاحتكام الى آراء النقاد عند الحكم على رواية جويس. يقول مانتون فى هذا الشأن: مهما قال المشتغلون بالأدب فإن المعيار الوحيد لتحديد بذاءة أى كتاب هو أثره فى المجتمع.. ويرفض مانتون كذلك فكرة أخذ نوايا المؤلف

فى الاعتبار، ولهذا نراه يوافق على قرار أصدرته إحدى المحاكم فيما يلى منطوقه: إن الهدف من وراء استخدام الكلمات البذيئة لا يجب إدخاله فى الاعتبار سواء كانت نية الكاتب تسلية القارئ أو تعليمه، حتى تحرى الكاتب الصدق لا يبرر نشر أى كاتب للبذاءات.. يقول مانتون:

«يوليسيس» عمل روائى، وقد لا يمكن مقارنته بالكتب التى تتناول الموضوعات الطبيعية أو وصف بعض الحقائق الجسمانية أو البيولوجية. ومن المفترض أن مؤلفه كتبه بهدف تسلية القارئ فقط، والشخصيات التى ترسمها مخيلة المؤلف قد تكون فى بعض الحالات حقيقية وصادقة، ولكن بذاءة أى كتاب لا يخفف منها تحريه للصدق.

والخلاصة أن موقف مانتون القاضى المعارض للرواية انطلق من دوافع مثالية وأفلاطونية، وكذلك رفض مانتون فكرة النظر إلى العمل الأدبى ككل عند تقييمه والحكم عليه، فضلا عن أنه رفض فكرة عدم الاعتداد بالأثر السيئ الذى تتركه الرواية فى نفوس المراهقين والشباب، فهو يقول:

إذا نحن تجاهلنا حماية أخلاق الذين يتأثرون بمثل هذه الكتابات فمعنى هذا أننا نراعى فقط الفائدة والمتعة التى يجنيها من الأدب هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم الأكثر تطورا وذكاء. وهذا ينطوى على تجاهل كامل لمعايير التهذيب فى المجتمع ككل، وتجاهل تام للأثر الذى يتركه الكتاب فى الشخص العادى والأدنى فى ثقافته - ناهيك عن تجاهل شريحة المراهقين.. إن الهدف من استنان أى قانون هو حماية المجتمع ككل، ولا شك - رغم ما ينطوى عليه هذا من حرمان الأقلية من الفائدة - أنه يجب

إدانة أى عمل له أثر مفسد. وهكذا يتجلى أن موقف مانتون المعارض لتبرئة الرواية يجنح إلى المثالية والأفلاطونية.. ويختتم مانتون رأيه بقوله:

عندما أقر الكونجرس هذا القانون المناهض للبذاءة كان هدفه حماية الجماهير العريضة... إن الشعوب لا تحيا من أجل الأدب أو كى تعطى شهرة للمؤلفين أو تمنح الناشرين الثروة أو لتسويق الكتب، بل العكس من ذلك.. إن الأدب موجود لخدمة الناس وإنعاش المتعبين وتعزية المحرومين وتشجيع الغلابة وزيادة حرص الناس على الحياة وفرحتهم بها.. إن مذهب الفن من أجل الفن مبدأ قاس لا رحمة فيه... إن الهدف من وراء الفن الذى يضع نفسه فى خدمة الناس نبيل وحيوى ودائم وهو عنصر دائم فى حياة البشر.. إن الناس يحتاجون ويستحقون تحقيق هدف أخلاقى، وإنه خليق برجال الأدب أن يحققوا هذا الهدف الأخلاقى.. إن الروائع الفنية والأدبية لا يضعها أناس اعتادوا ممارسة البذاءة أو الأفكار الشهوانية أو أناس منحلون يدورون من على حل شعرهم .

إن الأدب الجميل يبقى على مر الزمن، وهو مثل كل الأعمال الطيبة نبيل وخالد وهو يتطلب هدفا إنسانيا يتمثل فى إنعاش الناس وتعزيتهم وتطهيرهم وإضفاء النبالة على حياتهم، فبالأعمال الطيبة وحدها يمكن لرجال الأدب تبرير مكانتهم فى العالم.

ويلاحظ أن موقف مانتون الأخلاقى من الأدب يذكرنا بمقولة أفلاطون: إن الشئ الوحيد الذى يبرر وجود الشاعر فى جمهوريته هو قيامه بتعليم الأخلاق للمواطنين.

غير أن محكمة الاستئناف أصدرت حكمها ببراءة الرواية بناء على مناصرة ليرند وأغسطوس هاند لها، أى بأغلبية صوتين ضد صوت واحد.

وبمجرد أن علم مارتن كونبوى نبأ الإفراج عن الرواية حتى بادر بالكتابة إلى المحامى العام يطلب منه إصدار إقرار كتابى للطعن فى صحة الحكم الذى أصدرته محكمة الاستئناف. قال كونبوى بشان تبرئة محكمة الاستئناف لرواية «يوليسيس» من تهمة البذاءة لقد أخطأت المحكمة فى حكمها بأن رواية «يوليسيس» ليست بذيئة فى مجملها فى حين أن الكثير من فقراتها يتصف بالبذاءة ما فى ذلك ريب. والواقع أنه حتى إذا كانت المحكمة على حق بضرورة الحكم على الكتاب ككل وليس الحكم عليه بما يحتويه من فقرات معينة بذيئة. فإنه الواضح أن الفقرات المعترض عليها فى رواية «يوليسيس» كثيرة العدد وشديدة الطول فهى تملأ صفحات بأكملها فى الكتاب لدرجة أنها تجعله برمته كتابا بذيئا.

على هذا الأساس كان كونبوى على ثقة من أنه إذا كتبت محكمة الاستئناف إقرارا على نفسها بأن خطأ يشوب حكمها فإنه من الممكن الرجوع عن الحكم الذى أيدته لصالح «يوليسيس».

ولكن النائب العام اتبع وصية هارى س. ريجلى ورفض طلب النيابة الأمريكية بالسماح لها بالطعن فى حكم الاستئناف. واستند ريجلى فى رفضه إلى عدة أسباب أولها أن المحكمة العليا أوضحت رفضها إعادة النظر فى مثل هذه القضايا. وثانيا أن قضية «يوليسيس» ليست بهذه الخطورة بحيث تستدعى إعادة النظر فيها. وأيضا لم ير ريجلى مسوغا لإعادة النظر فى القضية لأن عدد الفقرات المعترض على بذاءتها لا تزيد

على إحدى وعشرين فقرة؛ بعضها قصير للغاية اقتطفت من مجلد ضخم تبلغ صفحاته ٧٦٧ صفحة. ولهذا ليس هناك ما يستدعى اعتراف محكمة الاستئناف بارتكابها خطأ قانونيا، وخاصة لأنه ليس هناك ما يدل على استعداد المحكمة العليا بالإقرار بهذا الخطأ. ثم إنه ليست هناك أية جدوى فى الطعن على حكم الاستئناف طالما أن الحكومة لم تقرر أن بذاءة أية فقرة فى أى كتاب تعتبر بذاءة الكتاب بأكمله.

وأخيرا استسلم مارتن كونبوى للأمر الواقع وأنهى حملته ضد الرواية. ولكن جون سمنر رئيس جمعية محاربة الرذيلة على أية حال رفض الإذعان لانتصار خصومه عليه. ويتضح من فحص سجلات وزارة العدل أن سمنر ظل يحرض الحكومة الأمريكية على فرض الحظر على رواية «يوليسيس» حتى النهاية. وكتب سمنر خطابا إلى النائب العام يجأر فيه بالشكوى من السماح بتداول رواية تتضمن كل هذا القدر الهائل من البذاءة، وعندها حاولت مارجريت أندرسون إقناع سمنر بالتخلى عن موقفه الرافض للرواية والانحياز إلى صفها.. ففى عام ١٩٢١ سعت إلى إقناعه بالعدول عن رأيه ولكنه ظل متمسكا به حتى النهاية.

عندما رفضت النيابة العمومية طلب كونبوى الاستئناف للمرة الثانية ضد حكم ولسى ببراءة رواية «يوليسيس» أمام المحكمة الأمريكية العليا كانت الضجة التى أثيرت حولها قد خلفت آثارا واضحة فى مجالات الأدب والقانون والثقافة والسياسة. هذه الآثار تتجلى فى أمرين أولهما إدخال تغييرات فى نص القانون نفسه واستحداث المؤلف خطة بديلة للبناء الروائى من شأنها التخفيف من وطأة هجوم الرقابة عليها. أما الأمر الآخر فيتجلى

فى طريقة استقبال النقاد والأدباء للرواية، فقد سعى الشاعر إزرا باوند والناقد ستيوارت جلبرت ولاربود إلى التركيز على الشكل الروائى الجديد الذى استخدمه المؤلف حتى لا يلتفت القراء إلى ما تحويه من بذاءة.

والجدير بالذكر أن رقعة الأعمال النقدية المدافعة عن الرواية اتسعت وخاصة دائرة قراء الكتاب النقدى الذى ألفه ستيوارت جلبرت عن رواية «يوليسيس». وقد استخدم ناقد آخر فيما بعد هو ريتشارد إلمان نفس محاجة ستيوارت جلبرت المدافعة عن الرواية. ومن الآثار الناجمة عن تبرئة القاضى وولسى لرواية «يوليسيس» أن طبعاتها البريطانية والأمريكية بعد عام ١٩٣٢ / ١٩٣٣ الصادرة فى عامى ١٩٦٠ و١٩٨٦ على التوالى تتضمن ملحقا يحتوى على قرار التبرئة الذى أصدره وولسى. وكان الهدف من ذلك تحاشى أية محاولة لإعادة الرقابة عليها، وينص العقد الذى أبرمته دار نشر راندوم هاوس والمؤلف جويس على أحقية الناشر فى تكليف أى كاتب آخر غير المؤلف فى التقديم لها (وهو شرط وضعه بنيت سيرف بناء على اقتراح من المحامى موريس إرنست). وفى خطاب أرسله سيرف إلى روبرت ت. كاستور وكيل أعمال جويس فى أمريكا شرح سيرف الهدف من وراء هذا الشرط، فقال بالإشارة إلى العبارة الخاصة بمحاولة التقديم للرواية بكلمة يكتبها شخص آخر غير المؤلف لهذه الطبعة، دعنى أوضح أن هذه المقدمة ليست بأى معنى نقدا أدبيا لرواية (يوليسيس). وعلى كل حال قد يكون من المفضل إدراج مذكرة محام بارز تتضمن قرار القاضى وولسى الذى أعطى شرعية للرواية. إن ضم الحكم الذى أصدره وولسى فى هذا المجلد سوف يوفر لنا الحماية فى أية قضية

أخرى قد تنجم عن نشرها. فلو أن قرار وولسى بالتبرئة استبعد فمن المحتمل أن المحكمة - فى حالة رفع قضية أخرى أمامها -سوف لا تسمح لنا بتقديم أية قرارات سابقة كأدلة.

غير أن جويس أظهر اعتراضا وبرما عندما أكد سيرف أن مقدمة الرواية سواء فى طبيعة راندوم هاوس أو غيرها من الطبعات سوف لا تتضمن أى نوع من أنواع النقد الأدبى للرواية، كما أنه أوضح لسيرف اعتراضه عندما طلب منه سيرف إدخال خطة البناء الروائى التى استحدثها المؤلف واستخدمها كثير من النقاد مثل لاربود وجلبرت للدفاع عن خلو الرواية من البذاءة. واعتقد سيرف أن قيام دار نشر راندوم هاوس بإلحاق خطة البناء الروائى كما وضعها المؤلف بالنص سوف يسدى خدمة لجمهور القراء. يقول بول ليون فى هذا الشأن: عارض المستر جويس بكل قوة دمج الخطة التى وضعها فى المتن الروائى بحجة أن «يوليسيس» قطعة من الأدب الصرف. وإذا كانت الرواية تحتاج إلى شروح فهى شروح تنتمى إلى الكتابات النقدية والجمالية ولا تنتمى إلى الرواية نفسها.

ويتضح لنا من الطبعة الأمريكية لـ «يوليسيس» أن إحجام جويس عن إدماج مثل هذا النقد الأدبى يرجع، كما قال لمريده صامويل بيكيت، إلى أنه قام بترتيب روايته «يوليسيس» أكثر من اللازم. غير أن إحجامه عن نشر خريطة البناء الروائى لروايته جاء متأخراً. وليس أدل على ذلك من أنه سبق له أن وافق على إدماج كثير من الكتابات النقدية التى اقترحها المحامى إرنست وطالب بإلصاقها بين دفتى نسخة «يوليسيس» المستوردة خصيصا من باريس لتقديمها إلى المحاكمة التى عقدت عام

١٩٣٢ / ١٩٣٣ . وعلى أية حال احتوت الطبعة الأمريكية على حكم البراءة الذى أصدره وولسى وليس على أية مادة نقدية. وبطبيعة الحال لم يعتبر جويس حكم البراءة الذى أصدره وولسى نقدا أدبيا فى حين اعتبره سيرف كذلك، كما رأى أنه يلقن قارئ الرواية درسا فى طريقة قراءتها. ويدل الخطاب الذى أرسله المحامى الكسندر ليندى إلى القاضى وولسى على ذلك. يقول ليندى فى هذا الشأن:

«بالإشارة إلى الشكل الذى الذى يتم به إدماج رأيك فى الطبعة الأمريكية الوشيكة الصدور فسوف أقوم بعرض أفكارك على دار راندوم هاوس للنشر. وإنى أعتقد مثلما تعتقد أن جميع الآراء التى عبرت عنها – باستثناء الجزء المهنى ومنطوق الحكم – على جانب عظيم من الأهمية والاستنارة».

والذى لا شك فيه أن إضافة قرار البراءة الذى أصدره وولسى والمنشور فى الطبعات الأمريكية والبريطانية لرواية «يوليسيس» والذى صار بمثابة نوع من النقد الأدبى انتشر بين القراء على أوسع نطاق.

لم يكن القرار الذى اتخذه وولسى بطبيعة الحال القرار الوحيد الساعى إلى الدفاع عن رواية «يوليسيس» وحمايتها من الإدانة. فقد سعت إلى نفس الشىء كثير من الكتابات النقدية التى أثرت فى حكم هذا القاضى وعلى رأسها كتاب ستيوارت جلبرت الذى أعيد طبعه عام ١٩٥٥ .

وفى تصديره للطبعة الأولى من كتابه النقدى عن «يوليسيس» يحذرنا جلبرت قائلا: هذه دراسة تقدم بالضرورة صورة مسروقة ومنقوصة من الأصل. فضلا عن أن جلبرت شجع القراء الجادين على

قراءة واستعارة أو سرقة نسخة من الكتاب الأصلى. ولكن جلبرت أعاد صياغة التصدير فى الطبعة الثانية من كتابه عن جويس حيث اعترف بأنه اتبع نغمة متحذلقة فى تأليف الكتاب بسبب رغبته إلى حد ما فى حماية رواية «يوليسيس» من مقص الرقيب، كما أن هذا التصدير الجديد يشير إلى أن جلبرت يفضل خصائص الرواية الخاصة على مضمونها المثير للخلاف. ولكنه لا يشير إلى أن كتابه يتضمن نسخة مسروقة من الأصل. ونحن نطالع فى التصدير الجديد الفقرة التالية:

حاولت عدم التخفيف من النغمة المتحذلقة التى اتسم بها جانب كبير من هذه الدراسة لأن جويس وافق عليها من ناحية ولأن الإعجاب بالرواية يرجع إلى خصائص بنائها الراسخ وليس بسبب كثرة ما ورد فيها من كلمات وفقرات وصفية صدمت مشاعر الكبار.. وغالبا ما كان الدافع وراء الموقف المتحذلق ينطوى على حماية مناسبة من الهجمات التى تشن على الرواية باسم اللياقة والتهذيب. واللافت للنظر أن جلبرت اقتطف فى طبعتيه الأولى والثانية من كتابه النقدى عن «يوليسيس» فقرات مطولة من هذه الرواية تتجنب الإشارة إلى الألفاظ البذيئة حتى تظهر الرواية أكثر نظافة مما هى عليه فى الواقع. والجدير بالذكر أن جلبرت كان أكثر حرصا على إظهار نظافة الرواية فى الطبعة الأولى من كتابه النقدى الصادر عام ١٩٣٠ أكثر من الطبعة الثانية الصادرة عام ١٩٥٥ . وعلى أية حال يتعين علينا أن نتنبه إلى أن كتاب جلبرت عن «يوليسيس» كان البديل الوحيد المتاح للقراء فى فترة حظرها... أى أن الكثيرين استخدموا كتاب جلبرت كمرشد للرواية. ولم يجد كثيرون غضاضة فى هذا. فقد

اعترف كليفتون فاديمان أنه وجد أن رواية «يوليسيس» هى الوحيدة فى كل قراءاته التى تحتاج إلى مرشد. يقول فاديمان فى هذا الشأن: فى هذه الحالة الوحيدة يتعين علينا مطالعة تعليق جيد قبل الشروع فى قراءة الرواية. والتعليق الذى سطره إدموند ويلسون أفضل وأقصر تعليق على الرواية، فى حين أن أفضل وأطول تعليقين عنها هما التعليقان اللذان كتبهما ستيوارت جلبرت وأنتونى برجيس. ومن الكتب النقدية الأخرى التى تلقى الضوء على شكل وبناء «يوليسيس» الروائى ذلك الكتاب الذى ألفه مايلز أ. هانلى بعنوان فهرس ألفاظ رواية «يوليسيس» تأليف جيمس جويس.

والجدير بالذكر أن الناقد مارتن جوس أغفل فى كتاباته عن «يوليسيس» الإشارة إلى ما تتضمنه من بذاءات مثل ممارسة بلوم العادة السرية على الشاطئ، وهو ما أغفله أيضا مساعد النائب العام الأمريكى نيكولاس أطلس فى نيويورك.

وبالرغم من رفع الحظر عن الرواية عام ١٩٣٤، فقد ظلت هذه الرواية مثارا للريب والشكوك حتى عقد الخمسينيات. ففى عام ١٩٥٩ شنت السلطات الأمريكية حملة ضد الأنشطة المنافية للآداب فى مدينة سانت لويس بولاية ميسورى انتهت بضبط رواية «يوليسيس» لأن حكم القاضى وولسى ببراءتها كان قاصرا على مدينة نيويورك وليس ملزما لولاية ميسورى أو الولايات الأخرى. ويرجع الفضل فى دخول رواية «يوليسيس» الأراضى الأمريكية إلى الحكم للسماح للرواية بدخول البلاد الأخرى مثل أيرلندا التى سمحت للرواية بالتداول نحو عام ١٩٣٤، ثم تلتها إنجلترا عام ١٩٣٦ . غير أن استراليا حظرتها عام ١٩٢٧ . ورغم رفع هذا

الحظر هناك فى عام ١٩٣٧ فقد أعيد فرضه عام ١٩٤١, ولكن استراليا لم تطبقه على العلماء والباحثين والدارسين وأترابهم. ورغم تهريب بعض نسخ الرواية إلى كندا فقد ظلت كندا من الناحية القانونية تحظرها حتى عام ١٩٤٩، وتم تهريب نسخ من الرواية إلى كندا قبل رفع الحظر عنها فى العام المشار إليه.

ويعتبر كتاب ريتشارد إلمان الذى يحمل عنوان «جيمس جويس» أحد الكتب المناصرة لضم خطة البناء الروائى إلى النص، وهى الخطة التى وضعها المؤلف بهدف التحايل على الرقيب والإفلات من قبضته. علما بأن إلمان سطر المقال الذى نشرته دائرة المعارف الأمريكية عن جيمس جويس. ويعتبر هذا المقال صورة فوتوغرافية شديدة التركيز من نسخة الخطة التى أعدها جويس نفسه لصد هجمات الرقابة عليه. ويوضح هذا المقال عناية الناقد ريتشارد إلمان بمعالجة الشكل الروائى وسعيه إلى إغفال بذاءة الرواية. يقول إلمان فى تصدير الكتاب:

إن المغزى الكلى للرواية يعتمد اعتمادا كبيرا على مفهومها للشكل لدرجة تجعل من المهم الالتفات إلى تلميحات المؤلف وإشاراته الضمنية. ففى البداية أصر جويس على عقد المقارنات بين الرواية وأحداث الأوديسا. ولكنه استبعد هذه المقارنات فى روايته بعد أن كان قد أدخلها فى بعض فصولها التى نشرها مسلسلة فى حلقات، وهو على ثقة من أن القارئ سوف يفهم الرواية كرواية حتى بعد استبعاد أوجه الشبه التى تربطها بالأوديسا. غير أن بال جويس لم يرتح أو يهدأ.. حتى قام ستيوارت جلبرت بإحياء العناوين التى صنعها هوميروس وذلك فى كتابه النقدى

«يوليسيس» لجيمس جويس المنشور عام ١٩٣٤ . ويهدف جلبرت من وراء التأكيد على أوجه الشبه بين رواية جويس وبين ما ورد فى أوديسا هوميروس إلى الدفاع عن هذه الرواية ضد هجوم الرقابة عليها، الأمر الذى دعا إلمان إلى التأكيد على العناصر المكونة لبنائها الروائى الذى سبق لجويس أن وضعه للتخفيف من وطأة الرقابة عليه.

ويجدر بالذكر أن هيو كينر أدرك أهمية خطة البناء الروائى التى وضعها جيمس جويس كى يدرأ عن نفسه ضربات الرقيب، الأمر الذى جعله يستسيغ محاجات إيلمان فى كتابه «يوليسيس». وأدت هذه المجادلات الحثيثة لاستحداث الأساليب الكفيلة بإخراس الرقيب أو دحض آرائه إلى تأخر النقاد فى دراسة الجوانب الأدبية فى الرواية. أى أن اهتمام الرواية بالجنس شغل النقاد وصرف انتباههم عن القيام بمثل هذه الدراسات الأدبية الخصبة، وكذلك صرف الاهتمام الشديد بالدفاع عن «يوليسيس» ضد هجمات الرقابة عن الالتفات إلى كثرة الإشارات إلى عمليات التبرز الواردة فى الرواية، الأمر الذى حدا بالناقد فنست شبنج إلى أن يقول: فى ضوء امتلاء كتابات جويس بالإشارات إلى عمليات التبرز، يدهشنى أن أدرى ضآلة عدد الدراسات التى أجريت فى هذا الموضوع. ومعنى هذا أنه نجم عن تأخير النقاش فى هذه العناصر أنه أصبح من العسير على المشتغلين بالأدب الوصول إلى نظرة متوازنة إلى رواية «يوليسيس» تهتم بمعالجة شكلها الجمالى وبذاءتها بنفس القدر.

والجدير بالذكر أن الكلمات النقدية التى سطرها كل من جلبرت وجوس وإلمان ـ إلى جانب حكم البراءة الذى أصدره وولسى – أضفت

صبغة الاحترام على الرواية وقللت قدر الإمكان من حقيقة ثوريتها.

ولكن اشتمال طبعتي داري نشر راندوم هاوس وبودلي هيد من الرواية على قرار القاضي وولسي بالبراءة ذكر القراء بأن رواية «يوليسيس» لم تمر عند صدورها مر الكرام بل أثارت جدلا عنيفا ومحتدما عند نشرها. فضلا عن أنها أثبتت أن الرقابة لم تؤثر في استقبال النقاد لها فحسب بل أثرت في الشكل الروائي الذي تميزت به، الأمر الذي نبه القراء إلى وجود علاقة حميمة بين جوانب «يوليسيس» القانونية وجوانبها الأدبية، كما لفت النظر - وهو الأهم - إلى الشك في المبدأ المنادي باستقلال الأدب عن مجريات الحياة وتعقيداتها.

والجدير بالذكر أن دار راندوم هاوس للنشر قررت مؤخرا استبعاد حكم وولسي من طبعتها الحديثة للرواية. وتشرح لنا آن فريد جود المحررة بهذه الدار السبب في استبعاد قرار وولسي قائلة:

إن السبب في استبعاد الوثائق المتعلقة بالمحاكمة في طبعة راندوم هاوس وطبعة مينسبرج الصادرتين عام ١٩٨٦ بسيط. فقد شعرنا بأن الرواية تشتمل على ما يكفي من المواد الإضافية نتيجة نشر تصدير ريتشارد إلمان والكلمة الختامية التي نشرها هانز والتر جابلر... ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى جعل الرواية أكثر ضخامة مما هي عليه. غير أن هناك بكل تأكيد ذكرا للمحاكمة على غلاف الكتاب.

وتشير كلمات فريد جود هنا إلى أن الحد الفاصل بين الجوانب الأدبية والجوانب غير الأدبية (ذلك الحد الفاصل الذي يتضمنه قرار وولسي كما تضمنته كثير من الأعمال الهادفة إلى الدفاع عن رواية

يوليسيس ضد الرقابة) لم يعد قاصرا على مجموعة صغيرة من نقاد الأدب. تقول فريد جود فى هذا الشأن: طالما أن هناك اعترافا بأن رواية «يوليسيس» رائعة أدبية فى الأساس فليست هناك حاجة إلى تأكيد مكانتها الرمزية من أجل تحدى قوانين البذاءة. وينم هذا القول عن الميل إلى إرساء مبدأ استقلال الفن عن طريق اجتثاث الصلة التى تربط العمل الأدبى بجذوره التاريخية. ويشير هذا بوضوح إلى عدم ضرورة الالتفات إلى الحظر الذى فرض على الرواية حتى نجيد فهمها، وأن تعرض الرواية للحظر أمر أصبح فى ذمة التاريخ. ولهذا نجد أن طبعة الرواية التى أصدرتها دار نشر راندوم هاوس للرواية (أى طبعة جابلر) تشير إشارة موجزة إلى حظرها على ظهر الغلاف.

ولكن هذا الإغفال لما تعرضت له رواية «يوليسيس» من حظر أو التهوين من شأنه على هذا النحو؛ من شأنه ألا يعطينا صورة وافية وسليمة لفهم الأسس التى أقيمت عليها حرية التعبير، وخاصة فى الولايات المتحدة بل فى جميع الديمقراطيات الليبرالية فى غرب أوروبا. وإنه لمن المستحيل إنكار مدى تأثير قرار وولسى بتبرئة الرواية فى المجال الاقتصادى، ناهيك عن المجال القانونى، لقد كان المحامى موريس إرنست وغيره من المعلقين على حق حين تنبأ بالأثر العميق الذى سوف يتركه حكم القاضى وولسى. فقد اعتبر المؤرخ القانونى إدوارد دى جوازيا قرار وولسى علامة بارزة فى تاريخ الرقابة. وذهب عالم اللاهوت هارولد س. جاردنر إلى أن هذا القرار أرسى قواعد اختبار الحداثة الذى أصبح حجر الزاوية فى القانون الأمريكى الحديث الخاص بتعريف البذاءة. وهذا ما أكدته المؤرخة الثقافية آن إيلاند

أولتـر التى ذهبت إلى أن قـرار وولسى هو الأول فى سلسلة القـرارات التى بلغت ذروتهـا فى مـحـاكـمـة رواية عشيق الليدى تشاترلى تأليف د.هـ. لورانس فى عـام ١٩٥٨ التى مـهـدت الطريق لإنهـاء الرقـابة بالمفـهـوم الأخلاقى فى الولايات المتحدة. وأيضا أشاد المؤرخ والناقد بول س. بوير بالأثر العظيم والمباشر الذى تركه قرار القاضى وولسى بالسمـاح بتداول الرواية.

والذى لا شك فيه أن قرار وولسى اكتسب أهمية فى تاريخ الرقابة على المصنفات الفنية والأدبية فى أرجاء العالم. فعندما استن البرلمان الكندى تشريعا جديدا خـاصا بالبذاءة فى عـام ١٩٥٩ قام أحد النقاد المعترضين بتقييمه محذرا: من الأسهل بكثير حظر كتاب مثل «يوليسيس» بمقتضى التعريف الجديد للبذاءة من حظره طبقا للتعريف القديم. وثمة مثل آخر يتمثل فى تحذير اتحاد الحريات المدنية الأمريكى من أن وزارة العدل الأمريكية بدأت تستخدم قوانين استنت خصيصا لمحاربة الجريمة المنظمة بهدف مقاضاة تجار الأدب المكشوف.. يقول اتحاد الحريات المدنية فى هذا الشأن: حين نطالع رواية «يوليسيس» للمرة الأولى نجد فى الغالب الأعم أن النسخة التى نطالعها تحتوى على القرار المصيرى الذى سمح باستيراد رائعة جويس الأدبية استيرادا قانونيا. كان هذا فى عقد الثلاثينات من القرن العشرين. ولهذا فقد اعتبرنا أن موضوع خوض الأدب فى شئون الجنس قد تم حله وأصبح فى ذمة الماضى، علما بأن مؤسسة الباسيفيك أرادت مؤخرا أن تختبر مدى سماحة لجنة الاتصالات الفيدرالية بالولايات المتحدة من ناحية الرقابة فطلبت منها إعطاءها الضوء

الأخضر لإذاعة حكاية بنيبولى فى رواية «يوليسيس» عبر الأثير، حيث أرادت أن تعرف إن كانت هذه اللجنة سوف تسمح لها بإذاعة العبارات والألفاظ البذيئة الواردة فى مثل هذه الحكاية مثل «واقعتها ثلاث أو أربع مرات بذلك الوحش الأحمر الكبير والضخم» و«أتانى من الخلف على طريقة الكلاب»، ضاجعنى وكانت نعم المضاجعة و«قام بمد لسانه سبعة أميال فى ثقبى». ولكن لجنة الاتصالات آثرت الصمت ورفضت إصدار قرار أو عدم إصدار قرار بهذا الشأن.

* * *

يمكن تلخيص الموقف المطالب بتبرئة رواية «يوليسيس» فى النقاط التالية (أولا) أن «يوليسيس» والأعمال الأدبية المشابهة لها لا تمت إلى الأدب المكشوف أو الفاضح بصلة. (ثانيا) أن نية المؤلف تجب الاعتبارات الأخرى سوى كانت أخلاقية أو سياسية أو دينية _ حتى لو كانت هذه النية تسعى إلى تدمير القيم التى تنعم بحماية القانون (سواء كان هذا خطأ أو صوابا). (ثالثا) يجب النظر إلى العمل الفنى ككل، فالنظر إلى رواية «يوليسيس» ككل يجعلها من الناحية القانونية لا تنتهك قوانين البذاءة. هذا العمل عند النظر إليه ككل يصبح خاليا من الاشتهاء ومن الفضائح والبذاءة. (رابعا) أن الشخص المتوسط أو الإنسان المعتدل فى رغباته الشهوانية يستجيب للفن على نحو شديد الاستاتيكية (أى بطريقة جمالية غير مثيرة).

ومن الطبيعى أن الذين يدينون بهذه النظرة الجمالية يذهبون بالتالى إلى أن رواية «يوليسيس» ومثيلاتها ليس لها أى أثر ضار على

الإطلاق، سواء كان هذا الضرر أخلاقيا أو سياسيا أو دينيا الخ. ولكن يجب علينا أن ننتبه إلى أن هذه النظرة الجمالية سيف ذو حدين. فإذا كان القرار الذى اتخذه وولسى ببراءة «يوليسيس» ينكر قدرة الأعمال الأدبية على إيذاء قرائها، فإنها فى الوقت نفسه تنكر عليها قدرتها على أن تترك فى قارئها أية آثار طيبة. ومعنى ذلك أن الأثر الذى تتركه الأعمال الأدبية والفنية محايد لا يخلف وراءه أثرا سواء كان هذا الأثر ضارا أو طيبا، ومع ذلك فإن الحكم الذى أصدره وولسى يوحى بأن الأدب الرفيع على أية حال لابد أن يترك فى النفس البشرية أثرا طيبا. يقول وولسى فى هذا الشأن: إن رواية «يوليسيس» قد تثير الاشمئزاز والتنفير ولكنها ليست قمينة بالإغراء أو الإفساد. وهذا يقتضى منا التسليم بأن الأعمال الأدبية لا تدمر سوى ما يستحق التدمير سواء كان هذا المعايير البورجوازية أو الدوجماتية الدينية المتحجرة والمتزمتة والنفاق الجنسى الذى ساد المجتمع الإنجليزى فى العصر الفيكتورى فى القرن التاسع عشر. ويرفض بعض النقاد التسليم بوجهة النظر القائلة بأن الأدب الرفيع لا يؤثر فى قارئه بدليل تلك الثورة الكاسحة التى عمت العالم الإسلامى ضد رواية آيات شيطانية. ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نذكر الأحداث الدامية التى وقعت فى مصر عقب نشر وليمة فى أعشاب البحر ولكن لابد من الاعتراف بأن كثيراً من المنفعلين بها لم يقرأوها.

Ulysses- Ezra Pound- Margaret Anderson- The Little Review-The Continent-Dreiser- Sister Carrie-New York Court of Appeals- Burleson- The Masses=W.H.

Lamar-John Quinn-Augustus Hand- John Quinn-Calypso- Gerty MacDowell-Nausicaa- D.H.Lawrence- Leonard Bloom- Stuart Gilbert-James Joyce's Ulysses-Lesrygonians= Cantleman's Spring Mate- John Middleton Murray- Valery Larbaud- Shane Leslie- Henry Carr- Bennett- Sir Horace Rumbold- George Borach- Seattle Strike- Scylla and Charybdis- A Honeymoon in the Hand-Cyclops-T.S.Eliot-Sam Coleman- Emma Goldman-The Egoist-James Light-Jane Heap-Society for the Suppression of Vive- Sumner-Homer-Anthony Comstock-Joseph Forrester-John Sumnner- Jackson R. Bryer-George Moore- Hugh Kenner-Maria Cummins- Gertrude Kaemffer- Ellmann-Marta Clifford- Jefferson Market Police Court- Washington Square Bookshop- District Attorney Swnn- Joseph E. Corrigan- Evelyn Scott- Swift- Rabelais- Oscar Wilde- Chief Justice Frederic Kernochan-John Cowper Powys- Philip Moeller-Powys- Moeller= Scofield Thayer- Ernest Boyd- Reverend Percy Stickney Grant- Justice McInerney- Chief Justice Frederic Kernochan-Flaubert- Madame Bovary- Jackson Bryer-MorrisErnest- H.S.Weaver- Sylvia Beach-Transition- Finnegans Wake- The Dubliners- The Dubliner- A Portrait of the Artist as a Young Man-Stanislaus- Paul Leon-The Day of the Rabblement- St. Stephen's- Oliver St. John Ggarty-Buck Mulligan-Stephen Dedalus- Trieste-Herbert Gorman-Aquinas- Stephen Hero-Herbert Gorman-Drama and life- Yeats-George Falconer- Stephen Hero- Harry Levin-Davin- Smart Set- H.L. Mencken- Grant Richards- Giorgio Melchiori-Guglielmo Ferro's Young Europe-Hades-Walton Litz- Joseph Frank- The Schema-Litz=John Rodker-Samuel Roth- Two Worlds Monthly-The Strangest Voluptousness- Draped Virginity- Aphrodite-Cerf- Herbert Gorman-Customs Office-Lindey-Huebsch-Random House-Robert N Castor-Marie Stopes-Mary Ware Dennet-Woolsey-Joseph T. Shipley-Joseph B. Keenan-Conboy-Manton-Celtic- Vincent Cheng- l'homme moyen senduel-Telemachus- Nestor- Proteus-Calypso-Sirens-Cyclops-Scylla & Charybdis- Circe- Penelope- Wandering Rocks-Oxen of the Sun-

Ovid- Shakespeare- Ibsen- Proust- Thomas Mann- Tales of the Ghetto by Leopold von Sacher- Masoch-Fair Tyrants by James Lovebirch- Ruby, the Pride of the Ring- Fair Sweets of Sin by Paul de Kock- Richard Brown- Comte de Mirabeau's Le Rideau Lev- History of Excess- Lustful Acts- Cruel Lips- Skirts- The Ups and Downs of Super Dick- Charles E. Merrill- Frank Budgen- Manley O. Hudson- George Medalie- Cummings- Circuit Court of Appeals- Martin Joos- St Louis Missouri- The Day of Rabblement- Leslie Fielder- Northop Frye- Theophile Gautier- Learned Hand- Lesley (Shane)- Wyndham Lewis (Cantleman's Spring Mate-Charles Merrill- Hicklin Rule- Eumaeus- Ithaca- Lotus eaters- Proteus- United States Espionage Act- United States Tariff Act- Virginia Woolf-Paul Jordan Smith-The Picture of Dorian Gray.

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

كتب باللغة العربية:

١) برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦١ .

٢) برتراند راسل المفكر السياسى، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦ .

٣) دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦ .

٤) توفيق الحكيم الذى لا نعرفه،مطبعة وهدان، ١٩٧٤ .

٥) اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩ ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩ .

٦) برتراند راسل، تأليف ألان وود (ترجمة)، الأندلس، بيروت ١٩٨١ .

٧) س. ب. سنو والثورة العلمية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ .

٨) موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠-١٩٣٠)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢ .

٩) موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤ .

١٠) شكسبير فى مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ .

١١) ماذا قالوا عن أهل الكهف، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ .

١٢) جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ .

١٣) الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ .

١٤) وول سوينكا (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ .

١٥) أدباء روس منشقون فيعهد جوزيف ستالين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١ .

١٦) الأدب الروسى والبريسترويكا، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١ .

١٧) الأدب والجنس، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣ .

١٨) الثالوث المحرم،دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤ .

١٩) الشذوذ والإبداع، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٥ .

٢٠) دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، كلية الألسن، جامعة عين شمس ١٩٩٥ .

٢١) من ستالين إلي جورباتشوف، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٦ .

٢٢) الإلحاد فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .

٢٣) الهرطقة فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .

٢٤) شكسبير واليهود، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٥ .

٢٥) العلم والدين، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، دار الهلال ١٩٩٧ .

٢٦) الرجل الذى مات، تأليف د. هـ. لورانس (ترجمة)، دار الهلال، يوليه ١٩٩٧ .

٢٧) ملحدون محدثون ومعاصرون، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، ١٩٩٨ .

٢٨) رباعيات الشذوذ والإبداع، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، ١٩٩٨ .

٢٩) اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال ١٩٩٨ .

٣٠) موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨ .

٣١) فى مدح الكسل ومقالات أخري، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة ١٩٩٨ .

٣٢) سيرة حياة برتراند راسل، تأليف ألان وود (ترجمة)، المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة ١٩٩٨ .

٣٣) اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال، نوفمبر ١٩٩٨ .

٣٤) صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى، دار الهلال، مارس ١٩٩٩ .

٣٥) الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد، دار الهلال، ديسمبر ٢٠٠٠ .

٣٦) اليهود فى الأدب الأمريك فى أربعة قرون، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .

٣٧) الهولوكوست فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .

٣٨) الهولوكوست فى الأدب الفرنسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢ .

٣٩) اليهود فى الأدب الروسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢ .

٤٠) محاكم التفتيش، دار الهلال ٢٠٠٢ .

٤١) محاكم التفتيش فى إسبانيا، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٢ .

٤٢) محاكم التفتيش فى إيطاليا، دار الهلال ٢٠٠٣ .

٤٣) أبرز ضحايا محاكم التفتيش، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٤ .

٤٤) محاكم التفتيش فى فرنسا (المجلس الأعلي للثقافة) ٢٠٠٥ .

٤٥) ألبرت أينشتاين: سيرة حياته (المجلس الأعلي للثقافة) ٢٠٠٥ .

٤٦) ترجمة إنجليزية لكتاب شكسبير فى مصر، مكتبة الاسكندرية ٢٠٠٣ .

٤٧) اليهود فى الأدب الإنجليزى من القرن الثامن عشر إلي القرن العشرين، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥ .

٤٨) محرقة اليهود: أوشويتز - بيركينو، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦ .

٤٩) من أدب الانشقاق، الكسندر سولجنتستين، دار الهلال ٢٠٠٦ .

٥٠) الغجر بين المجزرة والمحرقة، المجلس الأعلي للثقافة ٢٠٠٦ .

٥١) معسكر اعتقال داكاو، المجلس الأعلي للثقافة ٢٠٠٦ .

٥٢) معسكر اعتقال برجن - بلسن، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧ .

٥٣) معسكر اعتقال رافنزبروك، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧ .

٥٤) العرب ومحرقة اليهود، كتاب اليوم ٢٠٠٧ .

٥٥) معسكر اعتقال ماثاوزن (المجلس الأعلي للثقافة) .

٥٦) معسكر اعتقال بوخنوالد، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٨ .

٥٧) معسكر اعتقال صوبيبور (المجلس الأعلي للثقافة) .

٥٨) معسكر اعتقال تريبلينكا (المجلس الأعلي للثقافة) .

٥٩) هل أنت شيوعى يا مستر شابلن؟ قصور الثقافة ٢٠٠٨ .

٦٠) برتراند راسل أمام المحاكم الإنجليزية والأمريكية، دار الهلال ٢٠٠٩ .

٦١) د. هـ. لورانس وهنرى ميلر أمام المحاكم الإنجليزية والأمريكية (المجلس الأعلي للثقافة) .

٦٢) معسكر اعتقال دورا (المجلس الأعلي للثقافة)

٦٣) ظلام في الظهيرة تأليف أرثر كيسلر (المركز القومي للترجمة) .

٦٤) محاكمات فنية وأدبية وفكرية (محاضر تحقيق أمام لجان تحقيق أمريكية) جزءان صادر عن المركز القومي للترجمة ٢٠١٠ .

٦٥) فلاديمير نابوكوف (حياته وأدبه) صادر عن دار الهلال ,٢٠١٠

تحت الطبع

(٦٦) جيمس جويس أمام المحاكم الأمريكية .

(٦٧) الغصن الذهبي في الميزان.

مقال باللغة العربية:

- نقد رواية العنقاء، تأليف لويس عوض، المجلة فبراير ,١٩٧٠


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET